مكتبة ياسمين

رواية

الجبل الصغير

إلياس خوري

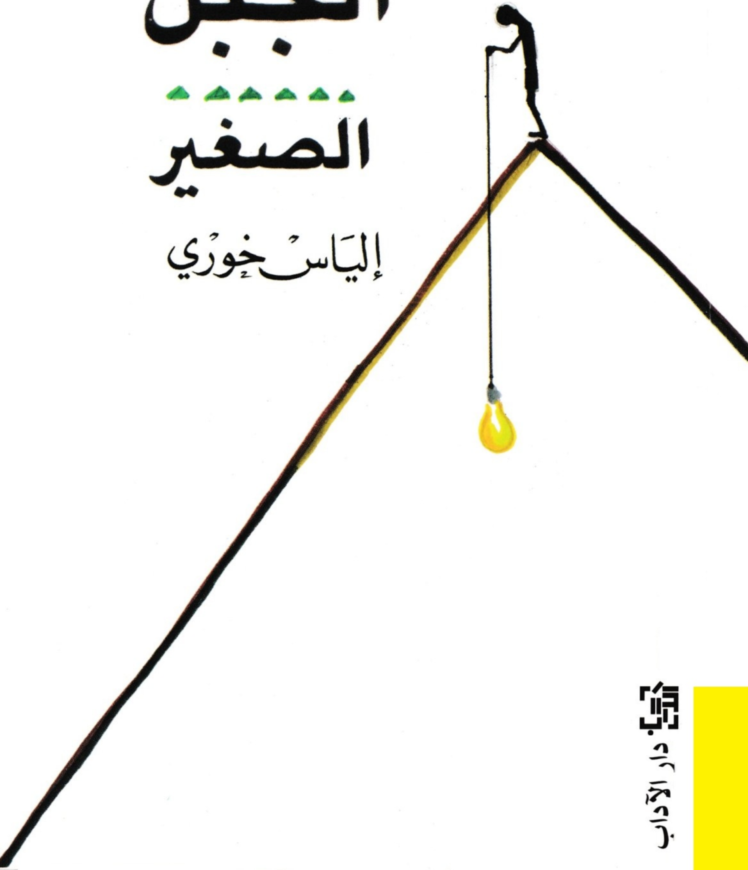

دار الآداب

دار الآداب
هاتف ٨٠٣٧٧٨ ـ ٨٦١٦٣٣
ص.ب. ٤١٢٣ـ١١ بيروت

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

هذه قصّةُ مجتمع يَتحلَّل، حيث الرّاوي يُجْبَر على مغادرة منزله، ويقاتل في شوارع المدينة وعلى الجبال، ويعيش تجربةَ موتِ رفاقه وتجربةَ الحبّ، وينتهي مخاطبًا محاربًا قديمًا مُشَوَّشًا في الممرّات وعلى رصيف مترو باريس. إنّ فرادة الجبل الصغير المُذهلةَ هي في تجنُّبها الميلودراما والمألوفَ: فإلياس خوري يَحْبكُ الفصولَ من غيرِ نسيجٍ أو نسقٍ يُمْكنُ التنبؤ به، وهو في ذلك يُشْبه إلى حدٍّ بعيدٍ سجينًا خارجَ الأرض أُفْرجَ عنه فجأةً فراح يهيمُ من مكانٍ إلى آخر، ومن الوراء إلى الأمام، معبِّرًا عن ذلك بلغة واقعيّة حسنة التمفصل هي على الدَّوام تقريبيّة، وإلى حدٍّ ما، مُرْبِكَةٌ له. إنّ عمل خوري يُجَسِّدُ بذلك حقيقةَ مأزق لبنان.

إلياس خوري فنّانٌ يعطي صوتًا للمنافي ذاتِ الجذور، ولمصيبةِ اللاجئين الواقعين في الشّرك، للحدود المتلاشية والهويّات المتغيِّرة، للمطالبِ الجذْريّة وللُّغات الجديدةِ.

إدوارد سعيد

إلياس خوري

الجبل الصغير

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

دار الآداب - بيروت

الجبل الصغير

إلياس خوري/روائيّ لبنانيّ

الطبعة الأولى 1977
الطبعة الثالثة 2003

حقوق الطبع محفوظة

مكتبة ياسمين
t.me/yasmeenbook

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123-11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

إلى ذكرى محمّد شبارو ورفاقه

١ ــ الجبل الصغير

يسمّونه الجبل الصغير(*)، وكنّا نسمّيه الجبل الصغير. نحمل الحصى، نرسم الوجوه، نبحث عن بركة ماء نغتسل بها من الرّمل، أو نملؤها رملاً ونبكي. نركض بين حقوله أو ما يشبه الحقول، نأخذ سلحفاة بين أيدينا، ونمضي بها إلى حيث أوراق الشجر الخضراء تغطّي الأرض. نخترع أشياء نقولها أو لا نقولها. يسمّونه الجبل الصغير، كنّا نعرف أنّه ليس جبلاً، وكنّا نسمّيه الجبل الصغير.

تلّة واحدة أو مجموعة تلال. لم أعد أذكر، ولم يعد أحد يذكر. تلّة على الطّرف الشرقيّ لبيروت سمّيناها جبلاً، لأنّ الجبال كانت بعيدة. جلسنا على منحدراتها وسرقنا البحر. الشمس تطلع من الشرق، ونحن نخرج من حقول القمح في الشرق. نقطف السنابل حبّة حبّة لنلهو بها. كان الفقراء أو ما يشبه الفقراء يركضون أطفالاً بين حقول التلال ليسألوا أشياء الطبيعة عن أشيائهم. هذا الذي نسمّيه عيدًا كان يومًا ككلّ الأيّام، لكنّه يختلط برائحة البرغل والعرق، نأكلها بين أشياء الطبيعة لنخبرها عن أشيائنا التي بقيت في الذاكرة حلمًا. كان

(*) الجبل الصغير، هو الاسم الشعبيّ الذي كان يطلق على حيّ الأشرفيّة في بيروت.

الجبل الصغير مجرّد حافّة نخترقها في تعجّب وكبرياء. ننسج القصص عن أحزاننا وننتظر لحظات الفرح أو الموت، لنلهو بعواطفنا عن رتابة الأيّام.

يسمّونه الجبل الصغير، وكان يمتطي الحقول الواسعة إلى شجيرات الصبّير المنتشرة في أنحائه. كانت النخلة التي أمام بيتنا تنحني من ثقل جذعها إلى اليسار. وكنّا نخاف أن تلامس الأرض أو ترتطم بها فاقترحنا ربطها بحبل من حرير وشدّها إلى نافذة بيتنا. لكنّ المنزل كان يتهاوى بحجره الرّملي السميك، وسقفه الخشبيّ. فخفنا أن تسقط النخلة بالبيت حين تسقط. تركناها تنحني يومًا بعد يوم. وفي كلّ يوم أمسكها من جذعها المتشقّق وأرسم عليها صورتي.

كنّا نخاف على الجبل وعلى نباتاته. وكان يتقدّم إلى حافّة بيروت ويسقط فيها. وشجيرات الصبّير التي تجرح أرجلنا، تموت، والنخلة تنحني والجبل يتقدّم إلى حافّته.

يسمّونه الجبل الصغير. كنّا نعرف أنّه ليس جبلاً، وكنّا نسمّيه الجبل الصغير.

* * *

جاؤوا خمسة رجال يقفزون من سيّارة جيب شبه عسكريَّة. يحملون البنادق الرشّاشة في أيديهم، يطوّقون المنزل. يخرج الجيران من منازلهم يتفرّجون. إحداهنّ تبتسم وترسم بيدها علامة النصر. يتقدّمون إلى المنزل ويطرقون الباب. تفتح أمّي باب البيت بتعجّب. يسألها قائدهم عنّي.

- خرج من البيت.

ـ أين ذهب؟

ـ لا أدري.

ـ تفضّلوا اشربوا فنجان قهوة.

يدخلون. يبحثون في البيت عنّي. لم أكن هناك. يبحثون بين الكتب والأوراق. لم أكن هناك. اكتشفوا كتابًا على غلافه الخلفيّ صورة عبد الناصر. لم أكن هناك. قلبوا الأوراق وأثاث المنزل. شتموا الفلسطينيين. كسروا سريري وهم يفتّشونه. شتموا أمّي والجيل الفاسد. لم أكن هناك.

لم أكن هناك. أمّي كانت هناك، ترتجف بالحزن والحقد، وتمشي في البيت بعصبيّة. توقّفت عن الإجابة على أسئلتهم وتركتهم. جلست على كرسيّ في المدخل تحرس بيتها، وهم في الداخل يبحثون عن الفلسطينيين وعبد الناصر والشيوعيَّة الدوليَّة. جلست على كرسيّ في المدخل تحرس بيتها، وهم في الداخل يمزّقون الأوراق والذكريات. جلست على كرسيّ، وهم يرسمون إشارة الصليب على وجوههم علامة الحقد أو الفرح.

خرجوا، رفعوا أيديهم في الشّارع بإشارة النصر. وكان بعض النّاس ينظرون إليهم ويرسمون شارة النصر.

* * *

سمّيناه الجبل الصغير عندما كنّا صغارًا نركض في شوارعه الترابيّة أو على حافّة الإسفلت الذي يجرح أقدامنا. نمشي في شوارعه لنبحث عن أشيائنا ونلعب. وفي أيّام العطلة أذهب مع أبي

وأخوتي إلى حقوله التي كانت تسمّى السيوفي، حيث نلهو بحرِّيَّة بين أشجار الزيتون والزنزلخت. هناك نقف على تلّة عالية مشرفة على ثلاثة طرق: طريق نهر بيروت، طريق كرم الزيتون، وطريق ثالث كنّا نسمّيه طريق بيتنا. نقف على التلّة العالية الواسعة، نركض فيها، ونخاف دائمًا من السقوط في أحد الطرق الثلاثة.

وقف فوق التلّة العالية. يمسك بيده اليمنى يد والده الكبير. كان ينظر إلى السيّارات التي تسير بعيدة عنه في الطريق ويتعجّب من كونها صغيرة إلى هذا الحدّ. إنّها لا تشبه أبدًا السيّارة التي يذهب فيها عادة إلى منزل خاله البعيد. سيّارات صغيرة جدًّا، تسير خلف بعضها، كأنّها سيّارته الصغيرة التي اشتراها له والده وجعلها تسير أمامه، وهو يغنّي لها. السيّارات المعدنيّة التي تمشي لا صوت لها. تسير في حركة رتيبة خلف بعضها وفي خطّ مستقيم دون ضجيج أو زمامير. لا تتوقّف. في داخلها ما يشبه النّاس الصغار الحجم. إنّهم ليسوا أطفالاً في مثل سنِّي ـ كان يفكّر ـ، وعندما سأل والده مرّة عن سرّ كون هذه السيّارات صغيرة إلى هذه الحدّ، أجابه والده بلهجة العارف بالأسرار، إنّ السبب يعود إلى كون الأشرفيّة جبلاً، كان البيروتيّون يقصدونه للاصطياف. وهي جبل عال بالقياس إلى بيروت. فالمسافة التي تفصلنا عن طريق نهر بيروت هي مسافى عالية، كذلك تلك التي تفصلنا عن طريق كرم الزيتون. وكلّما بعدت المسافة تصغر الأشياء. وغدًا عندما تكبر سوف ترى السيّارات صغيرة جدًّا. لأنّ الرّؤية ترتبط كذلك بحجم الذي يرى. كنت أهزّ رأسي دليل الفهم دون أن أفهم شيئًا. وغالبًا ما كنت أترك والدي يتكلّم حكايته التي يكرّرها دائمًا عن المسافات والسيّارات، وألتهي

بملاحقة أحد الزيزان المذهّبة وهو يطير بين الحشائش الخضراء أو يقف بين أغصان شجر الزيتون.

صفّ طويل من السيّارات الصغيرة التي لا تصدر أصواتًا. نجلس على حافّة التلّة نتأمّلها، وننتظر اليوم الذي سنكبر فيه فنراها صغيرة جدًّا، أو ننزل إلى الطريق فنراها كبيرة. تسير أمامنا وكأنّها قطرات ماء ملوّنة، لها أحجام مختلفة. شاحنات، ناقلات نفط، سيّارات صغيرة من مختلف الأنواع. نميّزها دون أن نعرف الأسماء أو الوظائف. كانت بعيدة وصغيرة، ونحن نمسك بأيدي بعضنا وننتظر أن نكبر. فتصغر أكثر، نمسك بأيدي بعضنا وننتظر أن نفهم السرّ. ودائمًا كنت أتعجّب كيف تكون السيّارة صغيرة لأنّها بعيدة. وأحلم بقصص الأقزام التي أخبرونا إيّاها في المدرسة، أو بقصص الرّجل الذي مسخه الشيطان إلى قزم كما تخبرني جدّتي.

الجبل الصغير في مكانه، الحشائش التي تغطّي جسده الجميل، بدأت تخلي مكانها للطرقات، فرحنا بافتتاح أوّل سينما في السيوفي. لكنّ المفاجآت كانت تنتظرني. كنّا نكبر دون أن يحصل ما انتظرناه طويلاً. نكبر ونذهب إلى السيوفي لنتفرّج على السيّارات فنراها تكبر. نحن نكبر والسيّارات تكبر. الحركة تحيط بنا والأصوات ترتفع. نحن نكبر والخطوط التي كانت مستقيمة تتعرّج إلى ما لا نهاية، والأصوات تصبح أكثر اقترابًا، والمساحات أكثر ضيقًا. أمشي وحيدًا، والجبل الصغير يتقوّس ويتعرّج. أبحث عن ذكرياتي حين كان أحد الشعانين عيدًا نخرج به من الكنيسة بنبرة شرقيّة، فلا أجد من

الذكريات إلاّ صورة صغيرة مهملة في جيبي.

السيّارات تكبر، تحيط بي. الأشجار تصغر أو تختفي. أنا أكبر والسيّارات تكبر، وحول رقبتي أصواتها، ألوانها، أحجامها. الآن نميّزها لكنّنا لا نفهم. التوقّعات القديمة أو الذكريات القديمة مجرّد توقّعات أو ذكريات.

في اللّيل، تصعد السيّارات من الطرق الثلاثة إلى التلّة المرتفعة، أو تأتي إليها. تحيط بي الأضواء التي تسحق العينين. يحاصرني صوت محرّكاتها وهي تتقدّم إلى وجهي. السيّارات كبيرة، لها عيون واسعة تمدّ خيوطًا من اللّهب الذي لا يحرق. تضع على وجهي علامات الرّهبة والأسئلة والأجوبة.

السيّارات تكبر ونحن نكبر. والطرق الواسعة تكبر. والأشجار تنحني على الجبل الصغير. أين أصبحت معادلات والدي وهو يروي لي حكايات المسافة والعلوّ والكبر؟

تقف وحدك، وسط نهر من الأضواء التي تمنعك من الرّؤيا وتسرق ذاكرتك. وتذهب للبحث عن بيتك وحيدًا وبلا ذكريات.

* * *

أخبرني أبو جورج قصّة الأسماء. وأبو جورج هو صديقي منذ أن كنت أسير وحيدًا بين الأضواء أبحث عن معادلات أبي في الجبل الصغير. يلتقيني وحيدًا، أجلس على حافّة هضبة تطلّ على خطّ القطار البطيء الذي بقي وحيدًا من ذاكرتي، ويخبرني ذكرياته عن الفرنسيين والحرب العالميّة.

يروى أنّ السيوفي، كانت أرضًا واسعة يملكها رجل اسمه يوسف الصغير. من أجل ذلك سمّيت الأشرفيّة جبل الصغير. ثمّ اشتراها الأخوان الياس ونقولا السيوفي بأرخص الأسعار، وبنيا فيها بعد الحرب العالميّة الأولى معملاً للموبيليا. فأصبحت المنطقة تسمّى باسميهما.

المصنع، وهو في الواقع مشغل كبير، لا يشذّ عن أولويّة الصناعات الخفيفة في بلادنا، كان حدثًا. يعمل فيه حوالى خمسين عاملاً. بنوا الأكواخ قربه، وفتح إلى جانبه مقهى صغير يقدّم القهوة والعرق. كان المصنع مشروعًا جديدًا، وكان النّاس يعتادون لأوّل مرّة على نمط جديد من الحياة. آلات حديثة. مفروشات على النمط الأوروبي لا يعلمون أين ستذهب، ولا كيف ستباع. يقبضون في نهاية الشهر مرتّبات أو ما يشبهها، يعطون قسمًا منها لنسائهم، ويشربون العرق بما تبقّى.

عندما بدأت المنطقة تعتاد على النمط الجديد من العلاقات والعمل، دخلها نمط جديد من السرقة. فبدل النمط القديم الذي كان يمارسه رجل يدعى ندره، يسكن في الطرف الشرقيّ من المنطقة ويمارس فرض الخوّة على طريقة الشهامة العربيّة القديمة، دخلت السرقة المنظّمة إلى المنطقة. السرقة التي تقوم بها عصابات تخطّط لما تريده، تسرق دون رحمة ولا شهامة ولا اعتبارات مبدئيّة. أهمّ حدث كرّس النمط الجديد من السرقة، كان سرقة معمل السيوفي نفسه. ففي آخر الشهر، يذهب المحاسب إلى بيروت، ليجلب مرتّبات العمّال إلى المعمل حيث يجري توزيعها. كمن له اللّصوص عند أحد المفترقات، سرقوا

ماله وتركوه يصرخ في الطريق. تنبّه العمّال على صوت المحاسب، تجمّعوا حول صراخه. ركض الرّجال والنّساء والأطفال ولحقوا بالسارقين. السارقون يركضون، والنّاس يركضون خلفهم من المفارق والأزقّة الترابيّة. وقبل أن يصل النّاس إلى اللّصوص، توقّف اللّصوص عن الرّكض، رموا الدراهم في الطريق، وتابعوا ركضهم. عندها انحنت الأجسام على الدراهم وبدأت الأيدي تتخاطفها. ونسي النّاس اللّصوص وتركوهم يهربون، وبدأوا يتناوبون بغير انتظام على التقاط الدراهم من الأرض.

هذا ليس نمطًا شهمًا من اللّصوصيَّة يقول أبو جورج. لماذا؟ لأنّ النّاس بأسرها نسيت الشرف وتبعت الدراهم. تساهلوا مع اللّصوص والتقطوا دراهم المصنع. هنا بدأ الانحدار. ويُروى، تابع أبو جورج، أنّ المعمل بدأ عمليّة إفلاسه من هذه اللّحظة. فمات الياس السيوفي من الحزن، وباع شقيقه نقولا الأرض إلى الناس. فقسّمت إلى ملكيّات صغيرة.

لكنّ أبو جورج يقول، إنّ الإفلاس ربّما كان له سبب آخر. فهناك بعض النّاس الذين قابلوا نقولا السيوفي، الذي كان يعمل فرّاشًا في وزارة الماليّة، بعد إفلاسه، يروون أنّ السبب يعود إلى السكر ولعب القمار ومعاشرة الأجانب. الله أعلم، يقول أبو جورج. لكن منذ بدأ هذا النوع الجديد من السرقة، بدأت عمليّة انحدار النّاس. وأصبحنا نتعامل مع أشياء لم نكن نعرفها في زمننا.

* * *

هل الجبل ينحدر؟

كانت السيّارات الكبيرة تتقدّم، تجتاحنا، وترسل أنينها في أرجاء الشوارع. الجبل يخترق من جميع النواحي. يقطعون الأشجار ويقيمون البنايات. آلات جبل الإسمنت أصبحت شعار المرحلة. في كلّ شارع آلة يتراكض من حولها العمّال السوريّون والأكراد. يرمون في أحشائها الرّمل والحصى والماء. فتدور على نفسها وترمي بعد ذلك الإسمنت الذي تبنى به البيوت العالية الحصينة. تنبت البنايات وكأنّها ولدت هنا وتتساقط الحجارة الرّمليَّة الدافئة والسميكة لتأتي مكانها حجارة الإسمنت المجوّفة والباردة. والعجلة تدور. مئات العمّال يأتون من أكواخ التنك المزروعة على المدخل الشرقيّ لبيروت والتي تسمّى الكرنتينا، ليحملوا الحصى والرّمل، ويمدّوا الإسمنت على السّاحات.

تأتي الجرّافة، فتسوّي التلّة بالأرض، أو بالعلوّ الذي افترض للأرض. وتتساقط النخلة أمام بيتنا بين فكّي الجرّافة. جذورها المنتشرة فوق الأرض، في بركة من الحجارة والرّمل، تقتلع وتتساقط. تتمزّق كالشرايين الصغيرة أمام القذائف. والأبنية الجديدة تعلو. جبال من الأبنية والطّرقات والساحات.

هل الجبل ينحدر؟

أسير على مفترقاته، أبحث عن طفولتي. أجد أمامي على التلّة التي أسمّيها جبلاً، منحدرًا صغيرًا يفصل الجبل عن نهر بيروت. السيّارات الصغيرة كبرت، وأنا كبرت. والبنايات

العالية أصبحت تغطّي البحر. كنت أعتقد أنّنا سرقنا البحر. لكنّ رائحة الإسمنت المسلّح سرقت رائحة البحر.

لم ينحدر الجبل.

الأصوات على مداخله، والأبنية تتوالد، والساحات تبنى. هذا الصوت المرتفع لم يعد صوتي. الأصوات تنحني على المداخل، والحركة أصبحت عنوان لحظة جديدة. هذا هو الجبل الصغير الذي لم ينحدر.

تعلو الحجارة وتعلو الرّؤوس. تعلو الموسيقى الصاخبة وتعلو الرّؤوس. أحمل على جسدي وشمًا قديمًا يعود إلى الأيّام وأنتظر على حافّته.

١٩٥٦ : العدوان الثلاثيّ على مصر. كنّا في مدرسة الحيّ الفقيرة والصغيرة. كنّا صغارًا. نستمع إلى راديو صوت العرب. نذهب إلى البيت ونفرح عندما تنتصر مصر.

١٩٥٨ : المتاريس في الحيّ. الوجوه كالحة. المسلمون يريدون قتلنا. لم تصدّق أمّي. كانت دائمًا تقول، هذا غير معقول. إنّهم يشبهوننا كثيرًا.

الأبنية العالية تصبح متاريس. تغيّرت الأشياء. الأصوات ترتفع. تغيّرت الأشياء. السيّارات تكبر ونحن نكبر.

* * *

يتابع أبو جورج رواية قصّته عن معمل الموبيليا. لا يملّ الحديث عن ذكريات الحيّ. يعتبر نفسه جزءًا من تاريخه. وفي كلّ لحظة يتساءل معي عن جدوى الحياة. يحدّثني طويلاً عن

شقيقه الذي كان جنديًا في الجيش الفرنسيّ في حوران، فتمرّد إبّان ثورة جبل الدروز، ودفع ثمن تمرّده ميتة رهيبة في الزنازين الرّطبة. المهمّ في الموضوع، أنّ المعمل بعد إفلاسه لم يهدم. بقي البناء الكبير في مكانه فارغًا من الآلات والشغّيلة. كنّا نذهب إلى هناك لنتفرّج عليه، ندخل فنراه مظلمًا، لكنّه بقي نظيفًا طوال الوقت. ثمّ جاءت الحرب العالميّة الثانية. لم نعرف الويلات التي عرفناها في الحرب الأولى، لكنّنا عرفنا قصف الطائرات. حوّل الجيش الفرنسيّ المعمل إلى مقرّ عسكريّ له. إلى ما يشبه الثكنة العسكريّة، التي كان يسكنها عشرات الجنود الفرنسيين ومعهم جنود أعتقد أنّهم صينيّون، كان يقال إنّهم من الهند الصينيّة، كانوا قصار القامة، صفر الوجوه، شبه حفاة، يلبسون في أقدامهم أحذية من المطّاط التي لا تقي من البرد. كانوا بمثابة فرّاشين عند الجيش الفرنسيّ، يطهون الطعام، يعدّون القهوة. وفي أوقات الرّاحة، يغنّون أغنيات خاصّة بهم، بلغة لم أستطع فهمها، رغم أنّي حاولت أن أقيم معهم علاقة حسنة.

وفي أوقات القصف، كان الجنود ينتشرون بين التلال. وكان هؤلاء القصار القامة، يتراكضون، بأقدامهم الصغيرة التي تلبس أحذية المطّاط، بين التلال، وينتشرون بين سنابل القمح وهم يتكلّمون بسرعة لغتهم الغريبّة.

طبعًا، نال لبنان استقلاله بعد الحرب، وغادرنا الجنود الفرنسيّون، وذهب هؤلاء الجنود الصغار القامة إلى بلادهم. وأعتقد أنّي رأيتهم أو رأيت ما يشبههم في التلفزيون عندما

كانت تعرض بعض الأفلام عن حرب ڤيتنام.

* * *

جاؤوا. خمسة رجال يقفزون من سيّارة شبه عسكريّة. يحملون البنادق الرشّاشة في أيديهم. يطوّقون المنزل. يخرج الجيران من منازلهم يتفرّجون. إحداهنّ تبتسم وترسم بيدها علامة النصر. يتقدّمون إلى المنزل. ويطرقون الباب، تفتح أمّي باب البيت بتعجّب. يسألها قائدهم عنّي. خرج من البيت. ــ أين ذهب ــ لا أدري.

ــ تفضّلوا اشربوا فنجان قهوة.

يدخلون. يبحثون في البيت عنّي. لم أكن هناك. يبحثون بين الكتب والأوراق. لم أكن هناك. اكتشفوا كتابًا على غلافه الخلفيّ صورة عبد النّاصر. لم أكن هناك. قلبوا الأوراق وأثاث المنزل. شتموا الفلسطينيين. كسروا سريري وهم يفتّشونه. شتموا أمّي والجيل الفاسد. لم أكن هناك.

وقف قائدهم. يحمل على كتفه بندقيّة رشّاشة، وفي يده مسدّسًا يتوعّد.

ــ الأفضل أن لا يرجع إلى هنا.

لم أكن هناك. أمّي كانت هناك. ترتجف بالحزن والحقد، وتمشي في البيت بعصبيّة. توقّفت عن الإجابة على أسئلتهم وتركتهم. جلست على كرسيّ في المدخل تحرس بيتها، وهم في الداخل يبحثون عن الفلسطينيين وعبد الناصر والشيوعيّة الدوليّة. جلست على كرسيّ في المدخل تحرس بيتها. وهم في

الداخل يمزّقون الأوراق والذكريات. جلست على كرسيّ. وهم يرسمون شارة الصليب على وجوههم علامة الحقد أو الفرح.

خرجوا، رفعوا أيديهم في الشّارع بإشارة النصر. وكان بعض الناس ينظرون إليهم ويرسمون شارة النصر.

* * *

تدخل السيّارات الكبيرة التي تملأ الشوارع. سيّارات شبه عسكريّة مدهونة باللّون الأسود. تطلق زماميرها وهي تسير. يقفز منها رجال يحملون البنادق الرشّاشة. أحدهم يضع منظارًا يتدلّى من رقبته ويركض من زاوية إلى أخرى. يصرخون في الناس. يرتجفون بالكراهية. يقف رئيسهم الذي يضع منظارًا يتدلّى من رقبته ويجيب على أسئلة بعض الفضوليّين. يحدّثهم عن حصار الكرنتينا. سوف ندمّرها عن آخرها ونطرد الغرباء من لبنان. سننتصر على الغرباء والشحّاذين الذين يريدون سرقة بلادنا.

يركب سيّارته الشيڤروليه شبه العسكريّة ويمضي. الرّجال يتراكضون. يسيرون في الشوارع بخطوات منظّمة. هان ــ دوي، هان ــ دوي (تعبير عسكريّ يعني: واحد ــ اثنين، كان يستعمله المسلّحون في حيّنا. لا أعلم السبب، لكنّه كان يستعمل على نطاق واسع).

تتجوّل السيّارات في الشوارع. تأكل السيّارات الشوارع بين أسنانها. السيّارات الكبيرة ترسل زمامير الخطر. أقف أمامها: عجلاتها كبيرة جدًّا، طويلة وضخمة.

تأكلني المعادن السوداء: يقولون حواجز. وأنا أرى وجهي يتساقط في الطريق. تأكلني المعادن السوداء: صوتي يتدحرج وحيدًا، ويمتدّ إلى حيث جثث أصدقائي التي تدفن في مقابر جماعيّة. تأكلني المعادن السوداء: الأيدي التي ترتفع لا تلوّح بالرّايات، بل تمسك الموت. المعادن في الطريق، الخوف وقوارير الغاز الفارغة والجثث وعلب التبغ المهرّب في الطريق. جاء وقت النصر. جاء وقت الموت. جاءت الحرب. وأمّي تهزّ رأسها وتحدّثني عن الفقراء.

* * *

يسمّونه الجبل الصغير، وكنّا نسمّيه الجبل الصغير. نحمل الحصى، نرسم الوجوه، نبحث عن بركة ماء نغتسل بها من الرّمل أو نملؤها رملاً ونبكي. نركض بين حقوله أو ما يشبه الحقول، نأخذ سلحفاة بين أيدينا ونمضي بها إلى حيث أوراق الشجر الخضراء تغطّي الأرض. نخترع أشياء نقولها أو لا نقولها. يسمّونه الجبل الصغير، كنّا نعرف أنّه ليس جبلاً، وكنّا نسمّيه الجبل الصغير.

تلّة واحدة أو مجموعة تلال. لم أعد أذكر ولم يعد أحد يذكر. تلّة على الطرف الشرقيّ لبيروت سمّيناها جبلاً، لأنّ الجبال كانت بعيدة. جلسنا على منحدراتها وسرقنا البحر. الشمس تطلع من الشرق، ونحن نخرج من حقول القمح في الشرق، نقطف السنابل حبّة حبّة لنلهو بها. كان الفقراء أو ما يشبه الفقراء يركضون أطفالاً بين حقول التلال ليسألوا أشياء الطبيعة عن أشيائهم. هذا الذي نسمّيه عيدًا كان يومًا ككلّ

الأيّام، لكنّه يختلط برائحة البرغل والعرق، نأكلها بين أشياء الطبيعة لنخبرها عن أشيائنا التي بقيت في الذاكرة حلمًا. كان الجبل الصغير مجرّد حافّة نخترقها في تعجّب وكبرياء. ننسج القصص عن أحزاننا وننتظر الفرح أو الموت، لنلهو بعواطفنا عن رتابة الأيّام.

يسمّونه الجبل الصغير، وكان يمتطي السّهول الواسعة إلى شجيرات الصبّير المنتشرة في أنحائه. كانت النخلة التي أمام بيتنا تنحني من ثقل جذعها إلى اليسار. وكنّا نخاف أن تلامس الأرض أو ترتطم بها. فاقترحنا ربطها بحبل من حرير وشدّها إلى نافذة بيتنا. لكنّ المنزل كان يتهاوى بحجره الرمليّ السميك، وسقفه الخشبيّ. فخفنا أن تسقط النخلة بالبيت حين تسقط. تركناها تنحني يومًا بعد يوم. وفي كلّ يوم أمسكها من جذعها وأرسم عليها صورتي.

كنّا نخاف على الجبل وعلى نباتاته. وكان يتقدّم إلى حافّة بيروت ويسقط فيها. وشجيرات الصبّير التي تجرح أرجلنا، تموت، والنخلة تنحني، والجبل يتقدّم إلى حافّته.

يسمّونه الجبل الصغير. كنّا نعرف أنّه ليس جبلاً، وكنّا نسمّيه الجبل الصغير.

* * *

في الثالثة من عمري، جاء كاهن الحيّ بجبّته الطويلة السوداء، ولحيته الجميلة. جلس في بيتنا وتحلّقنا جميعًا حوله. بدأ يخبرنا النوادر والقصص. ثمّ حدّثنا عن إنجازات ستالين والبولشفيك. التفت إليّ، داعب شعري، وقال لأمّي إنّ الوقت

قد حان لأنذر للقدّيس أنطونيوس وألبس عباءته (لبس عباءة القدّيس أنطونيوس، هو تقليد عند غالبيّة المسحيّين الشرقيّين في بلادنا، يلبسونها لأولادهم تبرّكًا بذكرى أوّل راهب مسيحيّ ترك المدينة وذهب إلى صحراء سيناء حيث أسّس أوّل تقليد رهبانيّ في الكنيسة).

العباءة بنّيّة اللّون، وعلى الخصر حبل أبيض يتدلّى. أمشي في الشوارع وأقلّد حركات القدّيسين. أمشي وحولي أطفال يلبسون العباءة أو لا يلبسونها. نتقدّم صفًّا طويلاً، إلى حيث الأيقونات المذهّبة والزجاج الذي تلوّنه الشمس. وحين أنسى أنّني أصبحت قدّيسًا، أركض، ألعب بالحصى والرّمل. أقع على الطرقات. ثمّ حين أعود إلى البيت، تنظر أمّي إلى ثياب القدّيس الملوّثة، تضربني على وجهي وتشتمني. ثمّ تأمرني أن أركع وأصلّي. أركع وأصلّي فينسى القدّيسون أنّني تركتهم وذهبت لألعب مع الأطفال الآخرين.

أمشي مزهوًّا بعباءتي البنّيّة الجميلة، أقلّد حركات الكاهن. أذهب إلى المدرسة فخورًا بثيابي، وأضع فوق رأسي هالة مدوّرة من أوراق الأشجار..

مات كاهن الحيّ فجأة. لم أفهم ماذا يعني خبر موت الكاهن. أذكر أنّني بكيت لأنّ أختي بكت كثيرًا. ثمّ بعد حوالى ستّة أشهر كما أذكر (ربّما لم أعد أذكر الحادثة، لكنّها مطبوعة في ذاكرتي لأنّ أمّي روتها لي عشرات المرّات). ذهبت مع أمّي وأبي إلى الكنيسة. كان التقليد هو خلع ثياب الراهب الجميلة في الكنيسة حيث تقدّم إلى الهيكل، ثمّ تضاء الشموع كشكر أو كصلاة.

ذهبنا إلى الكنيسة، كنت فرحًا ومندهشًا. وصلنا إلى بابها الكبير الذي يبقى مفتوحًا بشكل دائم. كان الباب مغلقًا. طرق أبي على الباب. لم يفتح أحد. طرقت أمّي لم يفتح أحد. ماذا نفعل قال أبي. طرقت على الباب، ركلته بقدمي. نترك العباءة على باب الكنيسة أجابت أمّي.

ـ والشموع؟

ـ نضيئها في الأسبوع القادم.

طرقت على الباب، ركلته. لم يفتح أحد. قام أبي وساعدني على خلع العباءة. بدأت أبكي. أخذت أمّي العباءة ووضعتها أمام الباب ورسمت إشارة الصليب. كنت أبكي. أمسكني أبي ومشينا إلى البيت. لم يفتح أحد باب الكنيسة. تركنا العباءة على الباب، وعدت حزينًا. ولم نضئ الشموع في الأسبوع القادم.

* * *

جاؤوا.

خمسة رجال يقفزون من سيّارة جيب شبه عسكريّة. يحملون البنادق الرشّاشة في أيديهم. خمسة رجال يلبسون قبّعات كبيرة سوداء، تتدلّى من رقابهم صلبان سود كبيرة الحجم. يطوّقون المنزل. يقرعون أجراس الكنائس، ويطرقون الباب.

خمسة صلبان طويلة سوداء تتدلّى أمام أمّي وهي تفتح الباب. تتمتم بعبارات غير مسموعة. تغلق الباب في وجوههم وتبكي.

خمسة رجال يكسرون الباب، ويسألون عنّي. لم أكن هناك.

اكتشفوا كتابًا على غلافه الخلفيّ صورة عبد النّاصر. لم أكن هناك. أمّي كانت هناك، ترتجف بالحزن والحقد والخوف. أمّي كانت هناك. جلست على كرسيّ في المدخل تحرس بيتها، وهم في الداخل يبحثون عن الفلسطينيّين وعبد الناصر والشيوعيَّة الدوليَّة. جلست على كرسيّ في المدخل تحرس بيتها، وهم في الداخل يمزّقون الأوراق والذّكريات.

أمّي كانت هناك.

لم أكن هناك.

كنت في الجانب الشرقيّ من المدينة، أبحث عن رجال قصار القامة، شبه حفاة، يلبسون في أقدامهم أحذية من المطّاط لا تقي من البرد. كنت في الجانب الشرقيّ من المدينة أبحث عن الجبل الصغير ممدّدًا على قامة رجال ينبت البحر في عيونهم الجميلة.

٢ ـ الكنيسة

المشهد الأوّل

التاسعة ليلاً. مطر خفيف وأصوات طلقات تقترب كلّما اقتربنا. ونحن نركض حذرين، البندقيّة بيد والحلم بيد أخرى. نقفز وسط شارع طويل اسمه شارع فرنسا، لنصل في نهايته إلى موقعنا الجديد: الكنيسة. صوت آمر الفصيل حازم وناشف. ادخلوا بحذر. لا تطلقوا النار إلاّ عند الحاجة القصوى وعلى عدوّ مرئيّ. معلومات استطلاعنا أنّهم أخلوا الكنيسة وأقاموا تحصيناتهم في شارع الحويّك. ونحن نركض وسط شارع فرنسا. الكنيسة نراها أمامنا، لكنّنا لا نرى شيئًا. ظلام كثيف لا يبدّده إلاّ لمعات الدوشكا في الأعلى قرب السماء، حيث يُخْرِسُ برج المرّ فندق الهوليداي إن ويحوّل وادي أبو جميل إلى منطقة لا تصلها نيران الانعزاليّين من الأعلى. عليهم إذا أرادوا القتال أن يحاربوا في الشارع، فالبناية العالية الأمينة لم تعد تستطيع التحرّك. نحن أسياد الطرقات يقول سمير. وأنا أركض، والمطر الخفيف ينزلق بين يدي وأخمص البندقيّة. أرى الكنيسة ولا أراها. الأحلام وسط الشارع، والقذائف تطير وترتطم بالأبنية الصغيرة الواطئة. وعاطف يرحّب بنا.

والرّفاق المقاتلون من مختلف المنظّمات والأحزاب ينتشرون وسط الأبنية وبين الحجارة، وأصوات الاشتباك ترتفع.

آمر الفصيل في المقدّمة. يقودنا إلى الشرق. والكنيسة إلى الشرق.

بين أسلاك الكهرباء المرميّة وبرك الماء وبنايات الرّمل، نتقدّم من الخلف. نخترق كلّيّة الفنون، حيث نرى نارًا يشعلها الفدائيّون أمام فراشهم الموضوع على خشبة كانت مسرحًا. نتقدّم من الخلف، نركض وسط شارع عريض ينفجر الرّصاص في هوائه وعلى جانب أرصفته.

ـ انتشروا.

ننتشر.

تقفز المجموعة الأولى من النافذة. خمس دقائق من الصمت حيث تنقطع الأنفاس ويتشنّج الإصبع على الزناد. المجموعة الثانية تقفز. ظلام. ننتشر. ثمّ يتقدّم الجميع. يوزّع آمر الفصيل المجموعات. نغلق المداخل. ننظر من النافذة: ظلام، طلقات، ولا أحد.

توزّع نوبات الحراسة، وتؤمن الكمائن.

بطرس يمشي، يبحث عن الكنيسة.

ـ نحن في الكنيسة يا بطرس.

ـ لكنّني لا أرى شيئًا.

يأخذ بطرس شمعة رفيعة، يضيئها في زاوية الكنيسة. ضوء

شاحب يرتجف. سالم يقف، بشعره القصير وقامته الطويلة، وكأنّه بائع السجّاد الذي رأيته في طفولتي يحمل الشوارع على كتفيه. سالم يحمل قاذف الـ ب ٧ على كتفه، ويضحك تلك الضحكة الطريّة التي ترنّ وسط الجدران. ما هذا؟ هذه ليست كنيسة.

المسيح على الأرض. تمثال المسيح ينحني، خدّه الأيمن على الأرض ويده اليسرى مفتوحة إلى الأعلى تبحث عن يده اليمنى المكسورة. وصورة العذراء شبه محطّمة، والماء في كلّ مكان. المطر يدخل من النوافذ. والمسيح يمدّ يده اليسرى قرب النافذة يلتقط المطر، فينساب من بين أصابعه ولا يبقى في اليد سوى رطوبة تذكّر بالمطر.

ما هذا؟ يصرخ سالم. هذه كنيسة محطّمة.

ـ اسكتوا!

سمير على الغرينوف يعزف تقاسيمه، والقذائف من كلّ الأنواع تنهال علينا. إنّها المعركة الأولى في الكنيسة. نندفع كالسهام، جلبة وأصوات ثمّ يهدأ كلّ شيء. تتسلّل مجموعاتنا، تضرب في العمق. سمير على الغرينوف، وجابر يطلق كمن يعانق المطر. اكتملت الذبيحة. تعرّفنا على الكنيسة حجرًا حجرًا وزاوية زاوية وجسدًا محطّمًا إثر جسد محطّم، ونحن نقفز، نتقدّم وننتصر. لقد أسكتناهم. الكنيسة موقع إسناد يقول آمر الفصيل. غدًا نتقدّم إلى مواقع جديدة كي نسيطر على مثلّث باب إدريس. خسائرنا لا شيء، سوى إصابة أحمد بجرح طفيف. استريحوا الآن وكونوا حذرين.

بطرس في الزاوية، يضيء شمعته النحيلة، يدندن ألحانًا منخفضة. أتقدّم وأجلس إلى جانبه. ضوء شاحب يرتجف على إيقاع الرّيح، والأشكال تتمدّد على مساحة مستطيلة فارغة إلاّ من بعض المقاعد المحطّمة، والأواني المرميّة والتماثيل المنحنية. ينهض بطرس ويبدأ في البحث. يمسك بيد المسيح، ينهضه، نتعاون. يقف المسيح بيد واحدة ممدودة. يمشي فأسير إلى جانبه. يلتقط ثوب كاهن بنِّيّ اللّون، مرميًّا في زاوية معتمة. انظروا. يصرخ. ننظر. والأشياء ترتجف على الحيطان والمساحات تمتدّ.

أمام الهيكل يقف وفي يده اليمنى قاذف الـ ب ٧ وقد تحوّل إلى عصا كاهن. يدندن بصوت منخفض لحنًا لاتينيًّا، ثمّ تدريجيًّا يرتفع الصوت. كلّ العيون تلتفت إلى حيث يقف كاهن بثوبه البنِّيّ وعصاه، وبلحيته التي ترتسم دوائر لا تنتهي. ثمّ يرتفع الصوت. اللّحن يدخل الحيطان والكلمات كالحصى تحت أقدامنا. العيون تكبر والكاهن يستطيل على الحائط، ثمّ يتقدّم تدريجيًّا، يترنّح. وبين النّغم والنّغم بضع قذائف وطلقات حمر وخضر:

ـ ما هذا يا بطرس؟

هذا هو العيد. ألوان في الفضاء وأصوات وإيقاع. بدأ القدّاس. والجميع يشارك كلّ على طريقته. جابر يطلق النّار، وسمير يحاول أن يتكلّم فتسكته عصا الكاهن. وآمر الفصيل ينام.

ـ ما هذا يا بطرس؟

تقفز الطفولة. كنيسة دير الحرف، قبل أن تلبس جدرانها الألوان الرومانيّة والأيقونات البيزنطيّة، كانت عارية مثل الفدائيّين. وكان الأب مرقص يرتفع بيديه المصلوبتين وصوته الخفيض إلى مدخل الهيكل، حيث يقف فتى يرتجف بالفرح والدهشة.

الابتهالات اللاّتينيّة والترتيل البيزنطيّ والكاهن يدخل العيون. النافذة تضيء بألوان الطلقات. وبطرس يتابع.

ـ ألا تسمعون؟ يقول سالم.

ـ ماذا؟

ـ أسمع وقع أقدام فوق. انتبهوا.

بطرس يتابع، وثلاثة يقتربون منه. خدّام الهيكل، بمعاطفهم، يقفون مشدوهين، يستمتعون باللّعبة ويتعجّبون.

ـ ألا تسمعون؟

أصوات الأقدام ترتفع. يصمت بطرس. ثمّ فجأة يخلع لباسه الكهنوتيّ، يمسك سلاحه جيّدًا. ننتشر. يقفز آمر الفصيل. يتقدّم. يصعد السلالم وخلفه ثلاثة رفاق. الحذر. معركة داخل الكنيسة؟ لا بدّ وأنّها ستكون معركة غير عاديّة.

الأربعة يعودون. لا شيء. كاهنا الكنيسة لا يزالان هنا، ويشير إلى فوق. اعتقدا أوّل الأمر أنّنا كتائبيّون، ثمّ عندما علما هويّتنا خافا كثيرًا. طمأنتهما. وطلبت إليهما عدم إشعال النّار،

والبقاء في الكنيسة حتّى الصباح على الأقلّ.

أصوات قذائف قريبة، والطلقات تقترب. المسيح يسقط مرّة ثانية على الأرض. ينهضه بطرس، لكنّه يعاود السقوط.

ـ مستحيل، لقد انكسرت قاعدة التمثال.

ـ لكنّه سيقف.

ـ حتّى إذا وقف فسيسقط غدًا. المعركة غدًا يا بطرس.

المشهد الثاني

ـ ما هو الفرق بين الحرب والحرب الأهليّة؟

في المسافة الصغيرة التي كانت تفصل بين الطلقة والطلقة، كان سالم يجد وقتًا لطرح الأسئلة. يطرح السؤال ولا ينتظر الجواب. دائمًا كان يقول، ليس الجواب مهمًّا. فالجواب يأتي مكان أيّ جواب آخر. المهمّ هو أن نطرح الأسئلة. وبين السؤال والسؤال كانت العضلات تتلوّن والوجوه ترتفع عن الرّمل والرّكام، تبحث عن الطرقات الضيّقة الموصلة إلى البحر.

الهدف هو البحر، يقول آمر الفصيل. عندما نسيطر على مثلّث باب إدريس نفتح أمامنا طريق البحر. ربيع البحّار القديم الذي أصبح مقاتلاً، يعرف طعم البحر وطريق البحر. لذلك ينحني كالسهم.

ـ أنا أتقن الأجوبة.

لكنّ سالم لا يزال يسأل: ما هو الفرق بين الحرب والحرب الأهليّة؟

الطرقات الضيّقة تتلوّى وتميل، وعلى جانبيها يرتطم الحجر

بالحجر. أصوات القذائف ترتطم بالأجساد. إلى اليمين حرائق، وإلى اليسار بناية منخفضة تسقط كعجوز بعد أن كسرت القذائف مفاصلها. بين الرّؤية والبحر بنايات وحيطان وحديد. وبين القذيفة والصرخة تتساقط الحجارة وتعود لتلامس نفسها.

الشارع الضيّق يطول إلى ما لا نهاية. بين بدايته والمواقع، أصوات الأقدام وصيحات مجموعات المقاتلين وضحكاتهم. الشارع الضيّق يضيق. الرّكام مكان حواجز الرّمال والرّمل بين الطرقات والبنايات. بين اليد التي تطلق والقدم التي تقفز، هناك جسد ينحني، يقف، يزحف. وحين يصل لا يمسك بغير البحر.

ـ ماذا تريد الحرب؟

ـ الحرب لا تريد شيئًا. لكنّها تقول إنّ الإسفلت يتدرّج من الشارع إلى الشارع المقابل. وإنّ في الشارع المقابل مجموعة مسامير تصلح أن تكون مقبرة.

ـ الإسمنت المسلّح يقاوم. لكنّ حجارة الرّمل السميكة أكثر قدرة على إعطاء الشعور بالأمان. الطرقات تتشابك. لكنّ النيران تستطيع أن تفتح ثغرات في الشبكة، ويحتلّ السّمك البحر.

كانت الرّابعة صباحًا عندما بدأنا. أصوات الاشتباك ترتفع وتقترب بعد هدوء دام حوالى ساعتين. نبيل يمسك بأدواته جيّدًا. وتبدأ الحيطان تخترق. العبوة الناسفة على الحائط، ثمّ تأتي الأيدي والمطارق لتوسع الثغرة. ننتقل من ثغرة إلى ثغرة،

وحولنا الغبار والركام والأصوات. الجسد يميل بين الثغرات ونتقدّم. أصوات الاشتباك ترتفع وتغطّي أصواتنا وأصوات اختراقنا للحيطان. المسافات الجديدة هي الحائط. معاطفنا الزرق بدأت تميل إلى البياض، وأيدينا تمتلئ بالغبار الرّطب الذي ينبعث من الحائط، وبين الحائط والحائط نختصر شارعًا ونتقدّم.

هذه هي بيروت الحقيقيّة، يقول طلال، والغبار يلفّه من شعره حتّى قدميه. يضحك برنّة كبرياء. لقد تعلّمنا الحرب واخترعنا قوانين جديدة.

لم نخترع شيئًا، يقول ربيع. نخترع عندما نصل إلى البحر.

أمّا نبيل، فكان بجسده المنحني على العبوات الناسفة يفتح ثغرة جديدة.

الجميع يغلقون آذانهم، وآمر الفصيل يتنقل بين دهاليز الحرب والكنيسة، ليطمئنّ إلى عمل مجموعات الإسناد. بين الغبار كانت الأصوات ترتفع، والأجساد تتسلّق..

ـ متى نصل؟

يبتسم طلال وهو يخبرني عن قصّة مونتي كريستو. لقد كتبوا عنه رواية لأنّه فتح ثغرة واحدة في حائط السجن. ونحن كم من روايات سيكتب عنّا، لأنّنا فتحنا عشرين ثغرة في عشرين حائطًا؟

ليسقط الأدب، يصرخ نبيل. انتبهوا. هذه هي الثغرة الأخيرة. وبعدها نصل ونفاجئهم. تقاسيم الوجوه تتلوّن بالسمرة

الخمريّة رغم الغبار. المجموعات تتهيّأ. الجميع ينظرون إلى أسلحتهم، يودعونها الأسرار الأخيرة، ويعلنون الثقة بها من جديد.

بين الغبار الأخير وغبار القذائف، كانت اللّحظات قصيرة والطلقات تزنّر الفضاء. نركض. نصل إلى أوّل موقع، نتقدّم. موج الغبار والأصوات يلفّنا ونحن نمسك رصيف الشارع ونكسره. كانت مجموعة من اللّحظات، اختلط فيها الله أكبر بخشخشة الثياب على الأجساد. وبعد فترة توقّف كلّ شيء. نحن في مثلّث باب إدريس. استشهد خالد وأصيب ثلاثة رفاق. لم يكن الحزن، لكنّه كان شيئًا آخر.

عندما اجتمعنا في اليوم التالي من أجل تقييم المعركة، كان جابر يقول: معركة ممتازة. لا أذكر كثيرًا، لكنّني أطلقت حتّى جفّت البندقيّة. كنّا كالبرق. أمّا طلال فلا يزال مشدوهًا. مثل الفيلم، مثل السينما. في المرّة المقبلة سوف أصوّر فيلمًا.

كنّا ننتشر على البنايات والأرصفة. الأقدام مبلّلة بالماء والجسد ينزلق. والمطر الخفيف يأتي ويذهب. أتينا بأكياس الرّمل من الكمين المقابل الذي غادره الكتائبيّون. بنينا متاريسنا وجلسنا نأكل. كنّا جائعين، لكنّنا نأكل بغير شهيّة.

بعد الظهر حصلت المفاجأة. المواقع هادئة ولا نسمع سوى طلقات بعيدة. البنادق ترتاح ونحن إلى جانبها نرتاح بحذر. ننظر إلى البعيد، إلى حيث مواقع الأعداء. نخبر ذكريات بعضها صحيح وبعضها غير صحيح عن المعركة، حين رأينا أعدادًا هائلة من الناس تتقدّم. أطفال، برؤوس حليقة ورؤوس غير حليقة.

حول الكمائن كانوا، يبحثون بين الركام والمحلاّت عن الأشياء. بشر من جميع الأجناس: أكراد، عرب... كانوا هنا بنسائهم وأطفالهم.

مستحيل، أصرخ. نحن ضدّ السرقات. نحن هنا لحماية الشعب وليس للسرقة.

المستحيل هو أن نمنعهم، يجيبني طلال. ويصرخ بهم بأن يذهبوا، ثمّ يطلق رصاصات قليلة في الفضاء.

لكنّهم لا يذهبون. ما هذا؟ ما هذا؟ ألوان وأشكال منحنية. هذه ليست سرقة. هذا فولكلور. هذا عيد. هذه هي الثورة. كلّ الثورات هكذا. جميلة ومرعبة و...

في غمرة دهشتنا وصراخ الجميع في محاولة منعهم، كانوا يتكاثرون. يهربون من صيحاتنا وطلقاتنا ويعودون. ثمّ بدأ اللّون الكاكيّ يختلط بالألوان الأخرى. ـ ما هذا يا رفاق؟ مجموعات أتت. عرفت أنّ النقطة سقطت. فأتت لتقاتل وتصادر وتعيش.

ـ ماذا يريدون؟

ـ هذا هو البحر. ما هو الفرق بين النّاس والبحر؟ ما هو الفرق بين البحر والأسماك؟

لم يكن البحر هو المفاجأة الوحيدة. فالحرب حين تتّسع تصبح مليئة بالمفاجآت. وبعد سقوط المسلخ والكرنتينا في أيدي الفاشيّين، تحوّلت الحرب إلى مفاجأة. أعداد هائلة من المقاتلين والميليشيا، بأسلحتهم وأحذيتهم وثيابهم يملأون

شوارع وادي أبو جميل، في محاولات لا تنتهي من أجل الوصول إلى البحر. ولم يكن التنسيق ممكنًا على المستوى العمليّ. قوّات مشتركة وغير مشتركة، من مختلف المناطق، تأتي وتقاتل. آمر الفصيل ينتقل من موقع إلى آخر في محاولة للتنسيق. لكنّ هذا ليس سهلاً. ونحن نقاتل من موقع إلى آخر، من حائط إلى حائط والغبار يملأ الفضاء.

يأتي بطرس من الكنيسة مسرعًا. يلهث وهو يخبرنا. المقاعد الخشبيّة صودر بعضها. جاء كثيرون وملأوا حيطان الكنيسة بالشعارات. والراهبان منزعجان جدًّا (بالمناسبة نسيت أن أذكر أنّ الراهبين بقيا في الكنيسة وأقاما صداقة متينة مع طلال).

ــ ماذا تفعل؟

ــ لا شيء. نحافظ على الكنيسة، وعلى الرّاهبين.

وكانت الطلقات والانفجارات في كلّ مكان. المقاتلون يطلقون النّار، يأخذون بعض الأمتعة. يتنافسون مع الأطفال على الأشياء الصغيرة. وكانت بيننا مجموعة جديدة، تقاتل بضراوة وسط الشارع. تبحث عن الحرب بين الصيحات والبرد.

وحين رأيتهم يتراكضون وسط الشارع وهم يصرخون لم أفهم. تبعتهم. كان الغضب ينتشر بين أصابعهم وأسنانهم. لم أفهم. وصلوا إلى مخزن لبيع الآلات الموسيقيّة، خلعوا الأبواب. أمسكوا الأبواق والطبول والصنوج، وبدأت مسيرتهم الموسيقيَّة. وسط شارع فرنسا بين الإيقاع والصراخ

وإطلاق النار. شهيد جديد. وكانت الطرقات تفسح لهم مكانًا، والحرب تفتح لدموعهم أبوابها.

وصلت إلى الكنيسة. تابعتهم من النافذة. كان بطرس يجلس في زاوية منعزلة وهو يدندن لحنه اللاّتينيّ. جلست إلى جانبه، وسمعت في الأعلى أصوات أقدام الرّاهبين تتقدّم صوب النافذة وتنظر.

بدأ صوتي يرتفع. وبطرس إلى جانبي، يصحّح لي إيقاع اللّحن الجنائزيّ.

المشهد الثالث

الرّاهبان الكبّوشيّان لا يزالان هنا. الأب مرسيل عمره حوالى ثمانين عامًا وزميله الذي لم أستطع أن أحفظ اسمه أو أن أقدّر عمره، لأنّ الكهولة تتسرّب من بين أصابعه كالماء. بقيا في غرفتهما فوق الكنيسة، لا يحتكّان بالرّفاق. وكنت أعرف أنّ علاقتهما بنا مليئة بالشكّ والرّهبة. نحن نشكّ في دوافعهما للبقاء، وهما يخافان منّا ومن نوايانا. لذلك فوجئت عندما طلب منّي آمر الفصيل أن أذهب وأشتري لهما بعض المواد الغذائيّة: حليب، جبنة، معلّبات، لحم، قهوة... ذهبت، اشتريت الأغراض، وفي طريق عودتي جلبت عن طريق أحد الأصدقاء قنّينة من النبيذ الفرنسيّ. قلت نحتفل بها مع الكاهنين. فرحًا بالهديّة، لكنّهما اعترضا على الجبنة..

ـ نريد أجبانًا فرنسيّة.

ـ هذا مستحيل يا أبونا. جميع المحلاّت مغلقة أو منهوبة.

لكنّني ذهبت، واشتريت لهما جبنًا فرنسيًّا رديئًا، كانت أمّي تجبرني على أكله، ولم أستطع أن أفهم أنّ له طعمًا، وهو متوفّر

في الأسواق.

صعدنا إلى غرفتهما بالجبنة أنا وبطرس وطلال. كانا يأكلان.

ـ لماذا لا تتذوّقان النبيذ؟

ـ أنا بانتظارك، أجابني الأب مرسيل. سوف نحتفل بهذا النبيذ معًا. نزلنا الدرج. كان الأب مرسيل مشدوهًا، يرتجف بالحزن والأسف.

ـ ما هذا؟ ما هذا؟ هذه حرب متوحّشة.

ـ كلّ الحروب هكذا يا أبونا. بسيطة.

ـ لا لا. ليست كلّ الحروب هكذا، أنا شاركت في الحرب. كنت ضابطًا في الجيش الفرنسيّ خلال الحرب العالميّة الأولى. ولم تكن الحرب هكذا. كنّا نحترم أماكن العبادة ولا نؤذي المدنيّين.

ـ لكنّها حرب أهليَّة. المدنيّون هم الذين يحاربون.

مشينا معًا. كان الأب مرسيل ينحني بصمت ورهبة على التماثيل المرميّة في الأرض. يمسك الرّكام بين يديه ويتمتم بكلمات لم أستطع أن أميّز مضمونها، هل هي صلوات أو شتائم أو مزيج منهما. انظروا، يقول الأب مرسيل. الكنيسة سفينة. انظروا إلى الهندسة: هندسة الكنيسة تشبه السفينة. الكنيسة هي سفينة تطفو فوق العالم. هي في العالم وليست منه. أنا لست حزينًا. هذه حرب همجيّة، وعلى سفينتنا هبّت

الرّياح فتحطّمت. لكنّنا سنعيد البناء.

ـ أنا أخاف أن تغرق السفينة يا أبونا. قال بطرس بخبث.

ـ لا. لا. السفينة لا تغرق في العالم. هي فيه وليست منه. تتحطّم، هذا ممكن. لكنّها لا تغرق.

التفتّ إلى الأب مرسيل، فرأيت وجهه يتمدّد على مساحة شعره الأبيض. وبين يديه كانت السفينة المحطّمة والأحزان. هذا رجل مليء بالذكريات. آخر لحظاته الراهنة تحوّلت إلى ذكريات. مسكين الأب مرسيل.

ـ لكن يا أبونا، هذا المفهوم الديني حول الكنيسة، هل هو مشترك بينكم وبين المسيحيّين الشرقيّين؟

ـ طبعًا يا ابني. هذا مفهوم قديم. تكرّس قبل الخلافات وقبل الحروب الدينيّة.

الكنيسة سفينة والعالم بحر هائج. هذا مفهوم لا يختلف عليه اثنان.

ـ إذًا ما هو الفرق؟ يسأل طلال.

ـ هذه قضيّة معقّدة جدًّا. لكن مبدئيًّا، أستطيع أن أقول إنّ الفرق يتعلّق بالنظرة الأساسيّة إلى علاقة الدين بالحياة. نحن عمليّون وعقلانيّون. الدين ينظّم علاقة الحياة بالله، وهو دين عقلانيّ، مراتبيّ، ينظّم الأشياء. أمّا الشرقيّون فهم صوفيّون. لم يفهموا في الماضي علاقة الدين بالدولة. وتحوّلوا اليوم إلى غطاء للشيوعيّة والإلحاد.

تابع الأب مرسيل جولته. كان مقوّسًا بالحزن. وجهه يختلط بفضاء الكنيسة الخالي من كلّ شيء، ما عدا الحطام وبقايا الهيكل. يمشي والأصوات ترتفع من ارتطام حذائه بالأرض، والقشّ وبقايا القذائف تتطاير من حول ثوبه البنّيّ. وكانت الشمس النحيلة تتلوّن بزجاج الكنيسة، تعكس ألوانها على الثوب البنّيّ فيتموّج.

لنصعد الآن قال الأب مرسيل. ولنشرب نخب صداقتي للفدائيّين.

فتح الأب مرسيل قنّينة النبيذ كجنديّ محترف. صبّ الكؤوس وشرب نخب صداقتنا الجديدة. كان فرحًا بالنّبيذ كالطفل، لكنّه يشرب كالجنديّ.

ـ لماذا فعلتم هكذا بالكنيسة. هذه ليست كنيسة عاديّة. هذه كاتدرائيّة. هل تعلم ما هي الكاتدرائيّة؟

هززت كتفي إلى الأعلى.

ـ الكاتدرائيّة هي الكنيسة المركزيّة. الكنيسة الكبيرة. كنيسة الجميع. ومع ذاك أتيتم ودمّرتموها.

ـ أنت ترى يا أبونا. نحن لسنا وحدنا هنا. هناك الكثير من المقاتلين. عدا أنّنا حين دخلنا الكنيسة كانت شبه مدمّرة. وأنت تعرف أنّنا كنّا مجبرين على احتلالها: فهي موقع استراتيجيّ، كما أنّها كانت تستعمل من قبل العدوّ للرماية علينا.

جلسنا حول مائدة صغيرة، عليها الجبنة والنبيذ وشربنا. كان الكاهن الآخر يجلس إلى جانبنا، يشرب ويأكل، ولا يتلفّت.

أعتقد أنّه كان ينظر إلينا من خلال ثنايا عينيه شبه المغمضتين نظرة كراهية وحقد.

بدأ الأب مرسيل يخبرنا: أتيت إلى لبنان، قال، بعد الحرب العالميّة الأولى. كنت ملازمًا في الجيش الفرنسيّ. ثمّ تعرّفت على هذا البلد وأحببته. أحببت فيه أمرين. التجارة والانفتاح على الغرب. هذا بلد مذهل وشعبه مذهل. أردت أن أبقى فبقيت. أمّا كيف تحوّلت إلى راهب فتلك قصّة طريفة. كنت ككلّ الجنود الفرنسيّين أرى أنّنا نحمل رسالة حضاريّة إلى شعوب الشرق المستعبدة. أتينا وكلّنا أحلام. نحن قادمون إلى البلاد الساحرة. إلى بلد لامارتين، من أجل إنقاذها من العبوديّة. ثمّ بعد المعارك التي فُرض على الجيش الفرنسيّ خوضها في هذه البلاد، اكتشفت أنّ الطريق الوحيد إلى قلوب أهلها ليس السيف بل الثقافة. إذا درسوا في مدارسنا سوف يتعلّمون لغتنا، وبعد ذلك يوثّقون علاقاتهم الاقتصاديّة بنا، ويتعلّمون الحضارة. أردت في بادئ الأمر أن أعمل مدرّسًا في إحدى المدارس الكاثوليكيّة. ثمّ قادني التدريس إلى الله. فأنا أتيت إلى الدين عن طريق الحضارة، وليس كما يجري عادة، تنتقل الحضارة إلى بلادكم عن طريق الدين.

طلال ينفث دخان سيجارته في الهواء، وينظر إلى الكاهن بعينيه الواسعتين نظرة شكّ. لكن يا أبونا أنتم لم تُدخلوا الحضارة إلى بلادنا. أنتم مجرّد مستعمرين، تأتون بالوصايا العشر. تعطوننا الوصايا وتأخذون الأرض.

ـ هذا ليس صحيحًا. هكذا يتكلّم الشيوعيّون عادة. لا يا

ابني نحن لم نأخذ شيئًا. خسرنا أفضل شبابنا من أجل رسالتنا الحضاريّة. ثمّ خرجنا عن طيب خاطر.

ـ لا أعتقد أنّكم خرجتم عن طيب خاطر. خرجتم مرغمين.

أبونا مرسيل يتبرّم بالنقاش الأيديولوجيّ. هو لا يحبّ الأيديولوجيا. الأيديولوجيا هي وسيلة هذا العصر الماديّ لاستجلاب الشباب. تقود حتمًا إلى عبادة الإنسان للمادّة. فيصبح متعصّبًا وغير مستعدّ للحوار.

ـ طيّب، كنت يا أبونا ملازمًافي الجيش الفرنسيّ عندما دخل بلادنا. فلا بدّ أنّك شاركت في معركة ميسلون.

ـ ميسلون، لا لم أشارك فيها. إنّما شاركت في معارك كثيرة غيرها. شاركت في معارك جبل الدروز وغوطة ودمشق. وأذكر أنّنا كنّا مثال الفروسيّة والانضباط، ولم نؤذ أحدًا.

ـ لكن يا أبونا، أخبار المذابح والاجتياح في معارك الغوطة والجبل لا تخفى على أحد. أنا قرأت كتاب الجنرال أندريا عن هذه المعارك. وهو يكتب بلذّة عن الاحتلال وتهجير الدروز، وقتل العصابات في الغوطة.

ـ الجنرال أندريا؟ صديقي. مسكين الجنرال أندريا، كان حازمًا ورومنطيقيًّا وكلّ طموحه أن يصبح مارشال الجيش الفرنسيّ، لكنّه مات بالسكتة القلبيّة. مسكين أندريا. اسمع جيّدًا. (أصبح صوت الكاهن حازمًا) الحرب هي الحرب. لا تستطيع أن تحارب الأعداء. ولا تستطيع ردع المخرّبين والجواسيس وأعداء الحضارة دون أن تعدم بعضهم. مصير

الحضارة بأسرها. مصير تاريخ فرنسا كان معلّقًا على نتائج معارك الجبل والغوطة. لم يكن التساهل ممكنًا. كان لا بدّ من الحزم والسرعة.

ـ ما هو الفرق بين الكاهن والبوليس يا أبونا أندريا؟

كان يلبس ثوب ضابط فرنسيّ، البندقيّة في يده اليمنى وكأس النبيذ في اليد الثانية. يروي نكاتًا بذيئة عن القتلى العرب الذين تُركوا بثيابهم السود في عراء الأرض، ولا من يدفنهم. نحن أقوياء يقول الضابط. وحوله جنود سنغاليّون وشركس، يتكلّمون الفرنسيّة بلكنة غريبة ويتحدّثون عن البطولة والحضارة والنّساء.

ـ ما هو الفرق بين الكاهن والبوليس يا أبونا؟

الكنيسة سفينة، لكنّ الدفّة تحطّمت. الكنيسة لا تغرق. وفي الأعلى يعيش كاهنان كهلان. الذكريات والأحزان.

ـ لماذا يهزم الذين يحبّون الحضارة الغربيّة؟

أمّا نحن فكنّا نبحث عن البحر.

لقد أصبحت الكنيسة موقع إسناد. طلقات الغرينوف تلعلع في الفضاء، ورشّاش جابر يسكت ثمّ يتكلّم. والأنقاض حولنا. ومعنا الأب مرسيل وزميله وذكريات عن فرنسا.

ـ كيف تقيم القدّاس يا أبونا!

ـ القدّاس الصامت أجابني. نحن نبحث عن الصّمت، وسط هذا الدويّ الهائل. نريد أن يعود الصمت سيّدًا.

فالصمت وحده هو باب التأمّل.

سمير لا يتوقّف عن الكلام ورواية النكات، وبطرس يدندن لحنه، وطلال يفكّر بفيلمه الجديد. والبنادق لا تسكت.

المشهد الرّابع

بين الكنيسة المحطّمة وساحة باب إدريس حيث المواقع الأماميّة، كانت اللّحظات تتداخل. تحوّلت الكنيسة إلى موقع ثانويّ، لكنّنا بقينا فيها، وأصبحت مكان نومنا المفضّل. ساحة كبيرة، جدران سميكة. برد وذكريات. وفي النهارات الطويلة، نجلس بين جدرانها، أو حول النوافذ، نطرح الأسئلة ونجيب على الأسئلة.

لكن لماذا لم تقتلوني، يقول الأب مرسيل؟

ـ لا يا أبونا. لماذا نقتلك. نحن نتّفق معك أو نختلف. لكنّنا لا نقتلك.

ـ لكنّ الحرب مليئة بالقتل.

ـ لا يا أبونا. الحرب شيء وقتلك شيء آخر.

الموت هنا، هو مسافة. مجرّد لحظة حبّ أو لحظة حقد. الموت لحظة ندخل إليها، ننتظرها. كان طلال يحدّثني دائمًا عن الموت. ما هو الموت؟ لا تشعر بشيء. هكذا فجأة لا تشعر بشيء. تفتح الباب ثمّ تدخل ثمّ لا شيء. أنظر إلى العيون

فأراها تتّسع. ما علاقة الموت بالعيون الفسيحة؟

كانت المعارك مدرسة. لكنّ الموت شيء آخر. حملته على كتفي، كان يرتجف كالعصفور.

الموت عصفور، يقول بطرس.

لكنّنا نحارب من أجل أن ننتصر لا من أجل أن نموت، يهتف جابر.

نموت من أجل الملصق، أجبتهم. الصورة الملوّنة وتحتها كتابة ملوّنة وخلفها عيون الصبايا الدامعة.

ـ لا يا أبونا. لن نقتلك يا أبونا.

والأسير، ماذا نفعل بالأسير، يسأل أحمد.

ـ نقتله فورًا. هذه حرب لا تحتمل أسرى. هم يقتلونك بلا مبرّر. يقتلونك لأنّ اسمك هكذا وليس اسمًا آخر. يسحلون قتلانا ويقتلون الجرحى. هذه حرب لا تحتمل أسرى. الأسير يقتل فورًا.

العصفور يرتجف على كتفي. وجهي يتبلّل بالدم الحارّ، وجسده يمتدّ من يدي إلى نهاية العالم. العصفور يئنّ أنينه الأخير وحوله البحر والمطر. كنت أركض بين القذائف والانفجارات. ثمّ وضعته إلى جانبي. جلست وتكلّمت معه. كان دافئًا كالكستناء وطريًّا كشعر أمّي. طفل يداعب وجهه الرّيح ولا يبكي. حملته ثانية. وحين وصلت إلى المستشفى قال لي الطبيب إنّه مات. لم أفهم شيئًا. عدت إلى رفاقي،

وتابعنا إطلاق النار والتقدّم وضحكنا وأخبرنا النكات.

ـ لا، لن نقتل الأسير. نأخذه ونضعه داخل عباءة الأب مرسيل البنيّة. يقفز بطرس إلى عباءته، يلبسها، يرفع يده ويأمرنا بالصمت يدندن لحنه اللاّتينيّ. لكنّنا لا نهتمّ. نتركه وحيدًا مع طقوسه وأحلامه.

أمشي في باحة كاتدرائيّة القدّيس لويس. هذه كنيسة قديمة، قديمة جدًّا. ربّما بنيت في عهد الإرساليّات. ربّما بناها أوّل تاجر حرير قدم من ليون إلى بيروت وفاء لنذوره في سبيل نجاح تجارته. الحقيقة أنّني نسيت أن أسأل الكاهن عن تاريخ الكنيسة، وكيف بنيت، ومتى كان في بلادنا طائفة اسمها اللاّتين. المهمّ هو الأرغن. كان الأرغن على الأرض مكسّرًا، يئنّ دون أن يصدر صوته الموسيقيّ الجميل. وحوله بقايا البلاط المحطّم والماء القادم مع المطر. الجدران السميكة بيضاء، لكنّها مثقوبة وعليها كتابات بكلّ الألوان، الأسود، الأحمر، الأخضر. وبين تمثال مقدّس وأيقونة قديمة تقرأ عبارات: الله أكبر، فتح مرّت من هنا. وحولنا أصوات إيقاع وصدى. لم أكن أفهم ما هو الصدى. كنّا، ونحن صغار، نذهب إلى الوادي المطلّ على نهر بيروت ونصرخ، فيعود صوتنا متردّدًا. أمّا هنا فالصدى له إيقاع آخر. تتحوّل القذيفة إلى معركة. يمتزج الصدى بأصوات الزجاج وخشخشة المبخرة وإيقاع أقدام الرّاهبين.

ـ لقد تحطّمت السفينة يا أبونا.

تحوّلت الكنيسة إلى ما يشبه البيت المهجور. البطّانيّات على

الأرض، والرصاصات الفارغة، وإيقاع أقدامنا. في الوسط حيث الدفّة والمائدة، كانت أكياس الرّمل تنقل إلى البنايات المجاورة، وكان الصدى هو سيّد الكنيسة.

ـ الحرب تدمّر كلّ شيء. لكن ماذا سنفعل بالنصر؟

ـ سنأخذه إلى نهر الأردن. تخيّلوا النّصر. النّصر يعني أنّ الفقراء والألوان يصبحون أسيادًا، والأسياد القدماء يبقون أسيادًا ولكن من دون خدم. الأرغن، سيعزف اللّحن الشرقيّ، والعلم يتحوّل إلى بصماتنا. نأخذ النّصر إلى نهر الأردن. يأتي رأس يوحنّا على صينيّة الذهب ويتكلّم معه، ثمّ ينزلان معًا إلى نهر الأردن. يوحنّا يعمّد النّصر، والنّصر يحمل رأس يوحنّا بين يديه.

ـ صحيح، إذا انتصرنا هنا في لبنان ماذا سيجري؟

ـ تأتي إسرائيل، وبعد أن نهزمها تأتي أميركا.

ـ وبعد أن نهزم أميركا، من يأتي؟

ـ عندما نهزم أميركا يذهب الجميع. نكون قد كتبنا قصّة أطول الحروب وأجملها.

ـ ولكن ماذا؟

طلال لا يوافق. ليس المهمّ أن ننتصر. المهمّ شيء آخر. المهمّ هو أن نعيش الحياة كما هي، نأخذها كما هي، نقاتل، ونموت على قمّة الجبل.

الكنيسة تهتزّ مع القذائف. جسد المسيح لا يزال منحنيًا على

الأرض. والمبخرة الطويلة تنتظر اليد التي تمسكها، لكنّ اليد لا تأتي. كلّ شيء تحطّم. الأواني النحاسيّة، والملاعق الفضّيَّة الصغيرة، وأثواب الحرير مرميّة على الأرض. وأخيرًا اكتشف جهاد الكنز. شموع لا تحصى. شموع رفيعة مصقولة موضوعة في أدراج خاصّة. أخذها جهاد ورماها. ركضنا، التقطناها عن الأرض. هذه ثروة. في المساء أضأنا الثروة بأسرها. مئة شمعة صغيرة أوقفناها على الأرض فالتمعت في اللّيل. بين إيقاع المطر وإيقاع المبخرة. كانت تضيء مثل وهج لم نعرفه من قبل، وحولها بدت أجسادنا نحيلة وحركاتنا غير قادرة على التحوّل إلى ظلال. مئة شمعة ترتجف وسط كنيسة مهدّمة. نحن في سفينة حقيقيّة. كانت السفينة تتلألأ وسط البحر، وفي داخلها بحّارة غرباء يبحثون عن ثيابهم الجديدة. نحن وسط البحر، المطر الخفيف يصل إلى قرميد الكنيسة ثمّ ينحدر على جانبيه، وحولنا الموج والكهنة ورصاص القراصنة.

ـ يأتي الأب مرسيل راكضًا. وعندما يرى الشموع يبتسم. اعتقدت أنّ الكنيسة تحترق. لا بأس، لا بأس، افعلوا ما تشاؤون.

ـ شكرًا يا أبونا.

قبيلة حول نار القبيلة. الأضواء ترقص لكنّنا لا نرقص حول النّار. ننفث دخان سجائرنا في الفضاء الواسع ونبحث عن البحر.

ـ ما رأيك يا أبونا. لماذا لا تغرق السفينة في البحر؟

الأب مرسيل لا يجاوب. يذهب إلى ذكرياته. يخبرنا قصص القدّيسين ثمّ يعود ليسأل من جديد: لماذا لم تقتلوني؟

ـ ولماذا نقتلك يا أبونا. نحن معًا، نعيش قرب البحر في سفينة محطّمة، وعندما نصل إلى البحر، سوف تغرق السفينة وتنتهي قصّتنا.

الهدف هو البحر، يقول آمر الفصيل، ونحن ننتظر البحر. سوف نصل إليه، نرمي شباكنا، نخلع ثيابنا ونشمّ رائحة الأسماك. جلس جهاد قرب النار وبدأ يغنّي. أصواتنا ترتفع. ووسط هذه الجوقة يرتفع صوت أحمد، متوتّرًا، يئنّ وهو يرسم المستقبل على الحائط المهدّم أمامه.

المشهد الخامس

البحر في عيوننا. بين أحزمة النار وملوحة المياه سقط جابر. سقط كالسّهم على قمّة الجبل، فاختلط الثلج بالبحر، والمطر بالملوحة القادمة من فوهة البندقيّة. كانت معركة البحر أقسى المعارك، وفيها، كانت الطرقات تمتدّ وتتعرّج إلى ما لا نهاية. لم نفاجئهم لكنّنا لم نفاجأ سوى حين وصلنا إلى الشاطئ. كان مطر القذائف يختلط بمطر السماء والرّياح تحمل البندقيّة كما نحملها نحن، والاشتباك ينحدر من شرفة إلى شرفة ومن دشمة إلى أخرى. كان البحر بعيدًا، لذلك فوجئت به. الظلام، والأصوات، وحركة القدمين، وليونة الجسد، والخوف على الرّفاق. كلّها أمور خبرناها في السابق. لكنّنا اليوم نختبر المفاجأة. كنّا نركض، والظلام الكثيف لم يعد يسمح بالرّؤية. نرى النار والحركة، نطلق عليهما ونتقدّم، وعلى المساحة كان الآخرون يطلقون ويتقدّمون.

قفزت رائحة الملح والأسماك إلى أنفي. لقد وصلنا، صرخت، أمسكت ثيابي، لم أكن مصدّقًا. ساعات الألم تختفي. لكنّني لا أرى البحر، ولا أسمع سوى صوت أمواجه،

وأشم رائحته. رائحة البحر تنتشر على مسامّ الجسد، تتغلغل في المفاصل التي شربت عفونة المستنقعات واحتضنت الرّمل والغبار، وهي تبحث عن القوس الذي يمتدّ من صنّين إلى الشاطئ. يدخل البحر في العيون. تلفح رائحة الملح المغطّاة بأشياء الأسماك العيون وتدخل فيها. ونحن نتقدّم والبحر بين أيدينا.

خلع طلال ثيابه وارتمى عاريًا بين الأمواج.

ـ لكنّنا لا نزال وسط المعركة!

ـ هذه هي المعركة.

كان يسبح كمن ينام مع امرأة. يطفو ويغوص. يمسك بالماء ويرميه إلى الأعلى. يحتضن البرد والمطر الخفيف والملح. وعندما خرج من الماء كان يرتجف كالعصفور.

ـ سوف تمرض وتخرج من المعركة.

لكنّ طلال لم يمرض ولم يخرج من المعركة. حمل المعركة على كتفيه، من سفينة محطّمة إلى سفينة محطّمة، وحين أوصل الأمانة إلى البحر مات على قمّة الجبل.

سقط جابر، قال سمير. كان إلى جانبي، وعندما أصيب في رأسه انحنى فقط. حملته وركضت به إلى الخلف. أخذه رفاق آخرون. والآن جاؤوا وأخبروني أنّه استشهد.

ـ الموت عصفور، يقول جابر. يحلّق فوق البحر بحثًا عن الأسماك، ثمّ يسقط فتأكله الأسماك.

ـ الموت علامة، فراشات وأحصنة. الموت نحن، يسكت بطرس. ينزف البحر في عينيه ملحًا ولا يبكي.

كان مسجّى، غطّوا رأسه بكوفيّته الحمراء، عيناه نصف مغمضتين، وثيابه ملطّخة بالدم والوحل. جابر، الجميل كالرّمح، يسقط بين قمّة الكنيسة وقمّة الجبل. كان هناك، مغطّى، وحوله العلم الفلسطينيّ والأصوات. وكان يعلم أنّه سيموت، لذلك كانت ضحكته ترتفع مع الطلقات. يمسك البندقيّة جيّدًا، يطلق ويضحك مثل الأطفال حين يمسكون بألعابهم.

ـ سوف نلفّه بالعلم الفلسطينيّ.

ـ هذا ليس العلم الفلسطينيّ. فلسطين ليست وطنًا حتّى يكون لها علم. فلسطين حالة. كلّ عربيّ هو فلسطينيّ. كلّ فقير يحمل بندقيّة هو فلسطينيّ. فلسطين حالتنا جميعًا.

كانت فلسطين خارطة، لكنّها أصبحت البحر. غدًا سأصوّر فلمًا عن البحر، يقول طلال. سوف أجعل البحر لباسًا وجابر يحمله هديّة إلى أمّه.

كان مسجّى. حوله الأصوات، في رأسه طلقة واحدة، وضحكاته ترنّ في القاعة. ونحن نحمل نعشًا فارغًا، نضعه في النعش ونمشي. محمولاً على الأكفّ المرتفعة والأصوات التي تهدر والبنادق التي لا تنحني. النعش الخشبيّ المستطيل، في داخله فتى ينام مستسلمًا للأيدي التي تحمله.

أنظر، يشير بطرس. النعش يشبه السفينة. سفينة مستطيلة من

الخشب تطفو فوق البحر. كانت السفينة تتهادى على الأيدي المرتفعة. في المقدّمة، على السارية، علم طويل. وفي الخلف، كان الناس والمقاتلون والرّفاق الذين جاؤوا يحملون السفينة إلى البحر. وجابر في الداخل، يمارس دور القبطان للمرّة الأخيرة، يقودنا بين الشوارع الفارغة في رحلته البحريّة الجديدة.

وقف الكاهن. وضعنا السفينة أمام الهيكل، وكان النحيب الخافت، ينبعث من المقاعد الخشبيّة، مثل صوت البحر قبل هبوب العاصفة.

هذه كنيسة حقيقيّة، همس سالم.

وقف الكاهن، بيده المبخرة، يردّد لحنه البيزنطيّ. وكان النهار مشمسًا، والأضواء تنعكس ملوّنة على ثيابه السوداء الطويلة ولحيته التي تضيء. وجابر داخل سفينته لا يجد الكلمات.

يرتفع صوت المرتّل الوحيد في كنيسة رأس بيروت إلى جانب ثوب الكاهن. ونحن نقف أمام الأيقونات الواسعة العيون، نستمع إلى الصلاة، نراقب حركات الكاهن وهو يتكلّم بصوت مرتفع عن معنى الاستشهاد.

الكنيسة سفينة، وجابر داخل سفينته، ونحن داخل السفينة الواسعة. في الخارج، كانت أصوات الطلقات ترتفع، والحركة تتقدّم.

حملناه مرّة ثانية ومشينا. كانت خطواتنا على الإسفلت،

تشبه مجاديف البحّارة القدماء وهم يقودون سفينتهم إلى الشاطئ. الأصوات تنخفض، والشمس تشرق، والأيدي المرتفعة تمسك بالخشب المستطيل، والسفينة تتهادى.

أمام الحفرة الواسعة وقفنا. أخذنا السفينة ووضعناه داخل الرّمل والتراب.

ـ لقد غرقت السفينة.

ـ لا لم تغرق.

تدخل السفينة التراب، ترتاح، بين طلقاتنا والهتاف المرتفع، وصوت الكاهن وهو يردّد الكلمات الأخيرة: من التراب وإلى التراب تعود.

نظرت إلى سالم، كان يخفي حزنه خلف وجهه المستطيل وابتسامته الشاحبة. سألني عن الحرب، كيف ستنتهي الحرب؟

لن تنتهي هذه الحرب، أجاب سمير، لقد بدأ الموت وبدأت الحرب.

كان الصمت والبحر والسفينة، لكنّ سفينة الأب مرسيل لا تغرق، تتحطّم فقط. وجابر في سفينته التي تتهادى كأميرة. ثمّ تسقط، لحظة، لحظة، حتّى يصل التراب إلى مستوى الأرض من جديد، ولا يبقى سوى كتابات وأصوات وطلقات.

ـ ما هو الفرق بين الكاهن والبوليس يا أبونا أندريا؟

ـ لماذا لم تقتلوني، يسأل الأب مرسيل؟

ـ ما هو الفرق بين الحرب والحرب الأهلية؟ يقول سالم.

الموت عصفور، يقول جابر. وطلال يحلم ببحر طويل كشعر حبيبته، يحمل الكاميرا والبندقيّة ويقفز بين الموج.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

٣ ــ الاحتمال الأخير

ماذا كنت تفعلين
قبل ثلاثمائة عام
في الحدائق القديمة.
عمرك سينتهي بعد لحظتين
كما أخبرك العرّاف الصينيّ،
العرّاف الصينيّ،
الزاوية.
والسمك يتنفّس من عينيك الخضراوين
وجسدك يمسح هموم الموسيقى
وأوجاع صمت المدافن المذهّبة.
قلبي متعب، منذ أن لمحتك
في مكان ما من آسيا،
حيث كان العرّاف الصينيّ،
يعزف لحن موتك،
ويرقص،
قبل أن يموت.

محمّد شبارو

أنا هو الاحتمال الأخير، قلت لها ونحن نمشي على شاطئ طويل. الرّمل بين أقدامنا، وهي، بجسدها الأسمر وشعرها القصير كشعر فتى زنجيّ لا يملّ من الضحك، تهزأ منّي. أنت رومنطيقيّ تقول. تصمت وتتركني أتكلّم إلى ما لا نهاية. أنا أتكلّم. أتدلّى داخل الكلمات. ألتقط الحصى، أضعه في فمي وأستمرّ. ثمّ حين أمسك بها تهرب إلى الرّمل، تضع الرّمل على رأسها وتلوّح به في الفضاء. ثمّ تصرخ: توقّف. أتوقّف، فأنا لا أستطيع. أعود كلّ مساء إلى المنزل منكسرًا، وأقرّر أن أصمت. يجب أن أمشي إلى جانب الفتى الزنجيّ النحيل دون أن أفتح فمي. عندها، سوف تسقط في اللّغة وتتكلّم إلى ما لا نهاية، مثل جميع النّساء. أهزّ رأسي، أبتسم قليلاً، أرفع حاجبي من حين إلى آخر، ثمّ أقول حكمتي: أنت رومنطيقيّة. ولكن عندما ألتقيها يسقط قراري، وأبقى أنا الرومنطيقيّ الوحيد. عنقها يعلو. لا أفهم، وجه نحيل وشعر قصير يختلط بالرّيح وعنق يمتدّ إلى ما لا نهاية. وعندما أحاول الإمساك بالعنق وأعلو إليه أسقط على الرّمل. عليك أن تفهم، كانت تقول. وأمّي تفهم، كنت أقول. تنتظرني حين أعود منهكًا. وهي تعتقد أنّني لا أتكلّم. لذلك لا تسأل. فقط تعطيني قليلاً

من الطعام، لكنّي طبعًا لا آكل. تحزن أمّي، أنا أحزن، والعنق الطويل الذي أتسلّقه لا يتوقّف عن الامتداد. أتوقّف عن طرح الأسئلة، أمشي إلى جانبها، رأسي إلى الأرض، ما هذا الحذاء، تقول. هذا حذاء الفدائيّين، أجيبها، ثمّ نصمت. اسمها مريم. طبعًا لا أستطيع الرّكض أكثر. أتبعها، تركض، ثمّ تنحني. تضع الرّمل على رأسها كما تفعل دائمًا. أذهب، لماذا حذاء الفدائيّين؟ وترنّ ضحكتها. وأنا أسقط في حذائي. أنزلق داخله كأنّه سفينة صغيرة على شاطئ طويل.

ـ أنا فدائيّ.

ـ ولماذا أنت فدائيّ؟

ـ لأنّني أصبحت فدائيًّا.

ـ ولماذا أصبحت فدائيًّا؟

ـ لأنّني، لا أعرف. لأنّني أحبّك.

ـ أنت رومنطيقيّ.

ـ أنا أمير.

ـ أنت كلب.

ـ أنا بطل.

ـ أنت فدائيّ.

ـ......

ضحكت. رنّت كالقوس. أمسك الرّجل قوسه ورماه. لم

يدخل السهم. سقط السهم في البحر، وبدأ السهم يغرق.

ـ لماذا أنت خارج الرّمل.

قالت إنّها لا تحبّ أن تجيب على أيّ سؤال من أسئلتي.

ـ هل تعرف أبي؟

ـ لا أعرفه.

ـ هل تحبّ أبي؟

ـ كيف أحبّ رجلاً لا أعرفه.

ـ يجب أن تحبّه لأنّه أبي.

ـ لا أحبّه، ولا أحبّ جميع الآباء.

ـ لكنّ أبي مات.

ـ جميع الآباء يموتون.

ـ لكنّه احترق.

ـ جميع الآباء يحترقون.

أمسكت الكاميرا إلى كتفي، وقفت. أريد أن أصوّرك. أخذت الكاميرا ورسمت الفتى الزنجيّ النحيل على الحائط، ثمّ رسمت دائرة. قفي داخل الدائرة. تقف داخل الدائرة. أدور بها وهي تدور. تمدّ ذراعيها إلى الأمام، ثمّ تنحني، تصبح دائرة.

ـ لماذا تلبسين البنطلون؟. تضحك. تدور داخل نفسها ثمّ تسقط وسط الدائرة. تمدّ يديها إلى أقصاهما، وجهها يرتجف

قليلاً. أتركها على الأرض وأرفعها إلى سقف الغرفة. السقف يمتلئ بالرّمل، ثمّ ينحدر الوجه. أجلب قشًّا وأضعه على رأسها. أنت دجاجة، أقول. لماذا هذه الحرب، تسأل. أمسك الكاميرا وأعطي الأوامر. أنا المخرج، ممثّلة واحدة وبحر ورمال.

ـ وكيف احترق والدك الذي لا أحبّه؟

تنهض، تزيل القشّ عن رأسها، تخرج من الدائرة، أنا لا أحبّ دائرتك ولا السينما.

ـ ولكن كيف احترق والدك؟

ـ أريد أن أذهب إلى البيت. وأنا على أيّ حال لا أقرأ الصحف ولا أحبّ قراءتها.

ـ أين مات والدك؟

ـ أنا في بيروت منذ مدّة طويلة. وأمس قالت أمّي إنّها تريد أن نذهب إلى عمّان. لكنّي لا أريد الذهاب إلى عمّان. أنا لا أحبّ عمّان. هل تحبّ عمّان؟

كانت عمّان مدينة عندما ذهبت إليها. لا لم تكن مدينة. كانت مجموعة تلال. ذهبت، كان الجيش يستعدّ ونحن نستعدّ. لذلك لم أتجوّل في المدينة. كنت أقف في كمين وإلى جانبي رجال سمر جباههم لكنّي لم أعد أذكر أسماءهم. وكانت الطلقات تنفجر في الفضاء فوق رؤوسنا. لكن لم يحصل الصدام. الشروط الموضوعيّة لم تكن ناضجة. هكذا قالوا لي. طبعًا اقتنعت. عندما تأتي الشروط الموضوعيّة لا تستطيع سوى

أن تقتنع. والشروط المقنعة يجب أن تكون موضوعيّة. كنت أسير وحيدًا في شوارع عمّان. فأنا لا أعرف أحدًا. والدورة العسكريّة انتهت، وعليّ أن أعود إلى بيروت. ولم تكن عمّان تعني شيئًا سوى أنّها مليئة بأحذية الفدائيّين وصور الشهداء والبنادق والذكريات عن الوطن وهزيمة ٦٧. لذلك لا أعرف عمّان. أذكر أنّها كانت بيضاء، وفي مجزرة أيلول، حتّى الدماء كنت أراها بيضاء. طبعًا لا أحبّ هذه المدينة. جميع أصدقائي لا يحبّونها. إنّها لا تشبه شيئًا. ربّما تشبه اللّيل. مات أصدقائي في عمّان، لكنّ هذا لا يغيّر شيئًا.

ترقص في السّقف، ثمّ تنحدر إلى الحائط. المدينة الأولى هي مجموعة حجارة ورمال وركام. الفتى النحيل في السقف. ينحني، يدور حول نفسه، ينكسر. يسقط من السقف إلى الحائط. تحمله الكاميرا إلى يدي. أضيء الكهرباء. هل أعجبك الفيلم؟ في المرّة المقبلة سوف أحمل الرّمل والملح داخل إيقاع لم أكتشفه بعد. حين تنحني المرأة داخل الدائرة، تصبح الدائرة أكثر جمالاً. تصبح مثل الرّغيف أو مثل اللّيمونة.

ـ ولكنّك لا تعرف عمّان.

ـ الاسم.

ـ طلال. طلال صالح.

ـ المهنة.

ـ طالب في كلّيّة الهندسة.

ـ لماذا تتظاهر؟

ـ جميع الطلاّب يتظاهرون، وأنا أتظاهر مثلهم.

البوليس، أحمر الوجه، يحمل عصًا بيضاء وترسًا أبيض وقنابل مسيلة للدّموع. نبكي ونهجم عليهم. بعضهم بأقنعة وبعضهم يبكي بدون أقنعة. لكنّهم يرتجفون. ونحن نركض وسط الشوارع، نقتلع أسلاك الكهرباء وعواميد السير، نهجم على تمثال بشارة الخوري نربطه بالحديد. نرقص. العصا بيضاء والترس أبيض ورجال الشرطة يبكون ونحن نبكي: يقف الضابط. أنت، ويشير إليّ. أنت هو المسؤول. تغرق يدي في جيبي، ثمّ يسقط قميصي يتهدّل فوق بنطلوني. لا أجيب. أصيب العشرات من رجال الشرطة. يصرخ الضابط: أنت مسؤول. أنحدر إلى الزاوية. الملك هو المسؤول. ثمّ أذهب إلى البيت كالعادة.

«ماذا كنت تفعلين قبل ثلاثمائة عام في الحدائق القديمة».

أبي يعرف عمّان. وأمّي تصرّ على الذهاب إلى هناك. تخاف من القذائف. أنا كذلك أكره الحروب. أعرف ماذا ستقول. أشارت بأصبعها إلى شفتيها كي أسكت. لكنّني أكره الحروب وخاصّة الحروب العادلة. أنا أحبّ أبي. وهو حين ذهب في المرّة الأخيرة لم يعد أبدًا. حتّى حذاؤه لم يعد. طلبت من المسؤول، وكان صديقًا لأبي، أن يعطيني ثيابه أو حذاءه أو أيّ شيء. لم يبق شيء. وعندما ذهبنا إلى المقبرة كان داخل

النعش. وأُنزل إلى التراب في النعش. احترق. لم أفهم شيئًا. دائمًا لا نفهم الأشياء الأساسية، لذلك نتوقّف عند التفاصيل. يومها اكتشفت عمّان. إنّها مجموعة جبال، هكذا يقولون دائمًا. لكنّها مجموعة دوائر لا تخترق. تخترقها الشوارع العريضة والشعارات التافهة، لكنّها تبقى مجموعة دوائر. والدم الذي ينتشر حولها يصبح بقعًا مدوّرة. لا تستطيع المدينة أن تتحوّل إلى ليمونة. جاءت الدبابات وكنّا هناك. ولم يكن أبي، لأنّه مات قبل ذلك. مات بالقصف، حين كانت الطائرات تفعل ما تريد. انتشر الجميع. انتشر أبي. رفع رأسه وكانت البندقيّة في يده تطلق طلقات غير مسموعة، لأنّ صوت الطائرات كان وحده مسموعًا. ثمّ جاءت القذيفة. الدبّابات هي التي قسّمت المدينة إلى دوائر. وبقينا نحن. العطش، وأمّي التي تشتم الجميع، وصورة أبي المعلّقة إلى الحائط.

الفتى الزنجيّ النحيل يمدّ عنقه. يضحك. هذه ذكريات قديمة. لكنّه مات. الموت بعيد، قالت. لذلك صعنوا العادات. البكاء والندب والرّقص والوقوف طويلاً أمام القبر. يقترب الموت بصلعته ويده. المدينة التي نسمّيها بيضاء تمتلئ بالصور والجثث والملصقات.

يقفز وجه سرحان بشارة سرحان أمام السائحة الثريّة الأميركيّة.

ـ ما هذا؟

ـ هذا ملصق. نحن نعامل سرحان كبطل. قتلت من أجل بلدي.

ـ لكنّه إرهابيّ ومعاد للديمقراطيّة.

وأنا إرهابيّ، قلت للسّائحة الأميركيّة. لكنّني أستطيع أن أضمّك إلى صدري وأقبّلك وأضحك. ضحكت ضحكة بيضاء.

انحنى الفتى على الرّمل، غرس يده في بقعة رطبة وجلس. أنت تتكلّم كثيرًا، يقول، وأمّي تقول إنّني لا أتكلّم. وتتساءل لماذا تعيش إلى هذه الأيّام السوداء. ثمّ تخبرني القصّة للمرّة الألف، وأنا أسمعها للمرّة الألف. وتنسى دائمًا قصّة المجنون. اسكت أنت مجنون. لا وجود لقصّة المجنون، كلّ ما هنالك أنّك ولد ذكيّ. جميع الذين رأوك كانوا يقولون يجب أن تبخّريه يا أمّ أحمد وتأخذيه عند الحاجّة فاطمة. كنت أبخّرك وأطعمك اللّوز والسكّر وأعطيك الدراهم. لكنّك ولد ذكيّ. عوض أن تشتري البالونات والمعلّل، كنت تذهب إلى الدكّان وتشتري من جميع الأصناف، ثمّ تقف أمام البيت وتفتح دكّانًا. ويأتي أولاد الحي إلى دكّانك ويشترون، والله يبارك. النصف ليرة تصبح ثلاث ليرات. طبعًا كنت أساهم أنا في رواج تجارتك، لأنّي كنت أعطي أولاد أختي الدراهم كي يشتروا من دكّانك. لكنّك كنت تربح. قلت يا أمّ أحمد هذا الولد سيصبح تاجرًا، وسيفتح الدكاكين ويبني العمارات. لكن ماذا تفعل بنفسك الآن. تتبع الحزوبات والفدائيّين ولن تصبح تاجرًا.

لكنّ أمّي لا تخبرني قصّة المجنون. وأنا نسيت القصّة.

لم أفهم، وأعتقد أنّ سالم الطويل لا يفهم الموضوع.

طلقات وأصوات انفجارات في كلّ مكان. الأرض تشتعل. نركض، نجلس جانبًا ونحن نلهث. يمسك قاذف الـ «ب ٧» جيّدًا على كتفه. عليك. أن تغطّيني، يقول. أتقدّم. أطلق النّار. ويطلق هو قذيفته. أصوات، رائحة لهب. وأبواب الدكاكين تتحطّم. فليحترق كلّ شيء. غدًا سوف تأتي النّساء بالعباءات الطويلة، يفصلن رائحة البارود عن الأشياء ويذهبن.

يجب إحراق الدكاكين.

الفتى الزنجيّ الأسمر. ينحني. كانت عمّان دوائر بيضاء. أمسك بها وأرميها إلى السقف. انظري، تنظر إلى جسدها وهو يتمدّد صاعدًا.

ـ لماذا تفعل بي هكذا؟

السينما هي السينما أقول لها. الحياة خدعة. ترنّ ضحكتها بين كاحليها العاريين. أنظر إلى ألوان البحر، تقول. البحر ليس أزرق، السماء ليست زرقاء. هذه هي الخدعة الحقيقيّة هل ترى؟

أرى السماء زرقاء والبحر أزرق. هكذا أرى، قلت لها.

ـ هل ترى الأخضر؟ هل ترى الأزرق الفاتح؟ طبعًا لا ترى الأبيض. أنت رمل. كلّنا نمشي على الرّمل ثمّ نصبح رملاً. أريد أن أغوص هناك بين الأخضر والبنفسجيّ. في اللّحظة الفاصلة. هناك أريد أن أبني بيتًا أو خيمة أو مجموعة حصى أو أغرق. هذا هو الغرق. استسلام كامل. الأشياء هي التي تنحني. هل رأيت الأشياء عندما تنحني؟ لكنني لا أستطيع.

جميع الناس لا يستطيعون. لا يستطيع أحد أن يفصل الألوان، نستطيع فقط أن نمزجها. وعندما تتداخل الألوان لا تتوقّف. حتّى المزج مستحيل. فللألوان مزاجها الخاصّ وتاريخها. يدخل اللّون في اللّون، ثمّ يصبح اللّون احتمالاً ويدخل في الأشياء، تنحلّ الألوان في الألوان. الأبيض غير موجود، قالت. أخذ الفتى الزنجيّ تفّاحة، قضمها، وضعها على رأسه وبدأ يركض. سقطت التفّاحة. أين هي التفّاحة، قالت. التفّاحة تمتزج بالرّمل والرّمل يمتزج بالماء. وحل. هذا تبن، قالت. لون التفّاحة يتغيّر. لكنّها لا تزال على رأسي. إنّها على الأرض، قلت لها، وانحنيت من أجل أن ألتقطها. اتركها، صرخت. التفّاحة على رأسي. أنت لا ترى شيئًا، قالت. لا أحد يرى. لكنّها على رأسي. ويجب أن أسافر غدًا. لا يمكن أن أترك أمّي وحدها. هل تستطيع أن تترك أمّك وحدها؟

ـ لا أعرف، لكنّني أتركها دائمًا.

ـ أنا لا أترك أمّي وحدها. تريد أن تذهب إلى عمّان، سوف أذهب معها.

ـ وأنا؟

ـ أنت!. ماذا تريد منّي.

ـ نتزوّج كما يفعل جميع الناس.

ضحك الفتى الزنجيّ النحيل. لن أتزوّج. وإذا تزوّجت فلن أتزوّجك. لن أتزوّج رجلاً سوف يموت.

ـ جميع الرّجال يموتون.

ــ لكنّك. فدائيّ. أنا أحبّ الفدائيّين، لكنّني لن أتزوّجهم لأنّهم يموتون بسرعة.

ــ جميع الفدائيّين يتزوّجون.

كانت الألوان تقترب. جلس طلال وحيدًا على الرّمل. خلع نظّارتيه، مسحهما بعناية ثمّ أعادهما. كان الشاطئ يستقبل الأمواج الخفيفة، ثمّ يرسلها من جديد. وفي المساحة الرّطبة التي تقع على حافّة البحر كانت الدوائر تتزايد. هذا هو الفرق. تقدّم من الشاطئ. هذه هي الألوان. لا تأخذ الألوان لونها إلاّ لحظة الغرق. البحر يصبح دوائر لا تنتهي. أمسك الرّمل ورماه إلى البحر. كلّ شيء يغرق في الماء. انحنى طلال. أين أنت أيّها الفتى الزنجيّ النحيل؟

«ماذا كنت تفعلين قبل ثلاثمائة عام في الحدائق القديمة».

صوتي يغرق في الدائرة التي إلى يساري. خلعت حذائي أمكسته بيدي ومشيت. ركبت السيّارة. أدرت المحرّك. أحدث المحرّك خشخشة ثمّ أنينًا وشهقات متواصلة قبل أن تتحرّك السيّارة إلى الأمام. أين أنت أيّها الفتى الزنجيّ النحيل؟ أوقفت السيّارة أمام الفرن. اشتريت رغيفًا ساخنًا وبدأت أمضغه متمهّلاً، والأشجار المزروعة على جانبي الطريق تعانق الأعمدة الكهربائيّة. وأنا أتنشّق رائحة الخبز.

* * *

كلّ شيء جاهز، يقول نبيل. لكنّنا تأخّرنا والشباب

ينتظرون، ينظر طلال إلى ساعته، علينا أن نذهب فورًا. نبيل يقفز في الهواء. ماذا تفعل أسأله.

ـ أستعدّ.

ـ ولكنّنا لن نذهب إلى مباراة كرة قدم.

ـ هكذا أستعدّ، يقول نبيل.

ـ ما هي أخبار المسلخ والكرنتينا، يسأل سالم.

ـ لا أخبار حتّى الآن، لكنّ الوضع بالغ الصعوبة.

ـ أنا لا أحبّ هذا الطعام. خبز وزعتر، هذا ليس طعام المقاتلين يقول طلال.

ـ آمر الفصيل يتكلّم. هذا هو الفطور وعلينا أن نأكل بسرعة.

يضحك نبيل ضحكة أستاذ حقيقيّ.

ـ لا تضحك يا أستاذ، أنا لا أحبّ الخبز والزعتر.

ـ ماذا تفعل بنفسك يا طلال. لماذا تعقّد الأمور يا ولد. هذا عجين وهذا عجين. هنا نضع الزعتر داخل الخبز وهناك يضعون الزعتر داخل الكعكة.

ـ أريد أن أشتري كعكة.

المسألة ليست في الثمن يا أبو أحمد. ثمن الكعكة عشرة قروش، الله لا يكسر أحدًا. ولكن يجب أن يعتاد الولد على الطاعة. تتكلّم أمّي وتتكلّم. وأنا أنظر إلى أبي. يغمزني الرّجل

الكهل، الضعيف البنية المهلهل الثياب.

ـ إمشِ أمامي إلى المدرسة.

أذهب إلى جانبه، يشتري لي كعكة، أضعها على رأسي وأركض. يركض ورائي: لا تخبر أمّك، يلهث ثمّ يسقط على الأرض.

ـ عندما أصبح رجلاً، سوف أشتغل بائع كعك.

والرّجل الكهل يمسك بيدي، يوصلني إلى المدرسة ثمّ يذهب إلى عمله. انتبه على نفسك. أركض في البيت، لكنّ الرّجل الكهل لا يركض ورائي. لا إله إلاّ الله. بسّام يغنّي داخل اللاّندروفر والمطر الكثيف يتساقط. أنا لا أخاف منهم، أخاف من البرد. والله يا أخي سالم، عندما تنتهي الحرب، سوف آخذك في رحلة بحريّة حول العالم. المطر يسقط، والسّماء تلتمع بالانفجارات. الأصوات تأخذ شكل الهمهمة. لكن ينقصنا الرّمل. علينا أن نقطع الشّارع بالرّمل. بسّام لا يحلم سوى بالرّمل. لماذا لا ننقل البحر بأسره إلى المتراس؟ نجلب الشاطئ، ثمّ نجلب الأمواج. قفزت إلى البحر. اتبعني، صرخت. دخلت الأمواج في عنقها وصدرها. ولم أعد أرى سوى ذراعها السمراء تلتمع تحت أشعّة شمس يخترقها المطر.

ـ أنت جبان.

ـ انتظريني، سوف أخلع ملابسي.

ـ لا. تعال كما أنت.

تقدّمت، ارتفعت الأمواج إلى أعلى. لن أتزوّجك، هتفت. خرجت من الماء، وضعت الرّمل على ثيابها وبدأت تركض.

ــ أنت شجرة.

ــ أنا مريم. أنت لا تعرف مريم. غدًا عندما أذهب إلى عمّان سوف تتعرّف إليّ.

تركض وسط الرّصاص. الرّصاص يقترب، يجب أن نذهب، قلت لها. الرّصاص يقترب، يجب أن أذهب، قالت. الرّصاص يقترب، وقفت إلى جانب طلال. توغّل سالم ونبيل في الشارع الطويل وذهب الجميع إلى المواقع. ظلام وماء. لا ينقصنا سوى وجه الله بلحيته الطويلة. المطر يتساقط، والشارع يغرق. يقف إلى جانبي ولا يجيب. الماء يرتفع إلى خاصرتي. أسمع خشخشة. هذا صوت المطر والرّعد. لن يحدث شيء هذه اللّيلة. نحن لا نستطيع التقدّم وسط المطر والظلام. علينا أن ننتظر بسّام، ربّما يستطيع أن يجلب الموج والبحر إلى الموقع.

الظلام يمتدّ إلى ما لا نهاية. ونحن نقف. أشعل سيجارة، أنفخ الدخان في الهواء. لا أسمع سوى نقر المطر على الأكواخ المحيطة بنا، وصوت شجار يأتي من أحد البيوت التي تقع خلفنا. وفجأة اشتعلت الدنيا، رائحة حرائق وأصوات قذائف. السماء تلتمع والقذائف تسقط في كلّ مكان. الحرائق تشتعل وثيابي ينخرها المطر. أخذت نفسًا عميقًا من سيجارتي التي ترتجف في يدي. البرد شديد، وخلفي ترتفع الأصوات

والجلبة. نيران على سطح أحد البيوت تنطفئ فجأة. وثلاث نساء يلتمعن في الظلام، بعباءاتهنّ الطويلة. ومناديلهنّ، وأيديهنّ التي تخشخش.

ـ ماذا هذا؟

الحزن الكرديّ يخرج إلى الشارع. لا نسمع سوى صيحات تشبه صيحات الاستغاثة، ثمّ يبتعد الصوت. ثلاث نساء يركضن في الماء، ثمّ يصعدن التلّة الخلفيّة. أركض باتّجاههنّ.

ـ إلى أين؟

ـ إلى جهنّم. القصف لا يصيب إلاّ بيوت الفقراء.

ـ ارجعي يا خالتي إلى البيت.

ـ كيف أرجع. اذهب يا ابني واتركنا. الله ييسّر.

عاد طلال إلى موقعه. ثلاث نساء، أطفال على الأكتاف، والماء يخرج من الماء. لا نلمح النسوة إلاّ بصعوبة، يشبهن طلال قنديل عتيق تمسكه إحداهنّ.

قائد الفصيل يأتي مسرعًا. يبدو أنّ هناك محاولة اقتحام للشارع. استعدّوا. تبعته. وقفت في آخر شارع يوصل إلى الطريق العام. وهي طريق كنّا نستمع إلى حركة الآليات التي تتحرّك فيها. أخذ طلال إلى شارع آخر. طلال وحده. عليك أن تنبطح، يقول قائد الموقع. ينبطح على الماء. تتسرّب المياه إلى جسده. يرتجف قليلاً. القصف يتصاعد. يجب أن نصمد. الماء يختلط بالدم. هذا شرف الثورة. أنتم شرف الثورة.

وشرف الثورة سوف يصمد. أمسكت البندقيّة جيّدًا وأطلقت الرّصاص. كانت الطلقات ترنّ في أذني ولا أراها. أمسك القنبلة اليدويّة وأرميها. الماء يرتفع والشظايا تتناثر. الماء يشهق عاليًا، هذا شرف الثورة. أنا منبطح. لكنّهم لا يتقدّمون. لا شيء سوى الرّائحة. رائحة المطر والماء الآسن، والبارود الذي يحترق. أصوات قذائف. لا أرى شيئًا أمامي. لكنّ طلال يبقى على الأرض، يطلق النّار، يتقدّم إلى الشارع الرئيسيّ. لا شيء سوى القصف. يتوقّف المطر، وتبدأ الحجارة تتفتّت. أنظر إلى الخلف: ثلاث نساء، بعباءاتهنّ الطويلة، يركضن على التلّة المرتفعة. تجلس المرأة الأولى على حجر، وتبدأ نواحًا خافتًا. يتقدّم الرّجل من المرأة، يمسك يدها ويرفعها تقف ثمّ تسقط. يسقط الرّجل إلى جانبها.

ـ هذه هي المرّة الثانية. في المرّة الأولى بدأنا نركض. قالوا إنّهم اقتحموا الحيّ. هربنا. وفي اليوم الثاني عدنا. واليوم انفتح علينا غضب الله. كيف سنأكل؟

كان الرغيف الساخن على وجهي.

ـ من أيت أتيت بالخبز؟

وأمامي يقف وهو يحمل فنجان قهوة يشتعل باللّهب.

ـ يعطيكم العافية. ليلة متعبة.

طلال يصرخ بفرح. أنظر إلى الشمس. لقد اشتريت الخبز والجبن ويجب أن نوزعه. يجب أن يتوقّف القصف. كان ثوب المرأة طويلاً، يلامس الأرض ثمّ يزحف خلفها. وعلى الثوب

ارتمى أطفال يضعون أيديهم على رؤوسهم وينتحبون.

ـ ما هذا يا خالتي؟

ـ لا شيء. أبحث عن زوجي. خرج أمس في اللّيل وقال إنه ذاهب ليشتري خبزًا، ولم يعد. هل رأيت الخبز؟

طلال يحمل خبزًا ويجلس بين النساء. اجتمعت النساء حوله. صوته يرتفع، يحتدّ: هناك أزمة تموينيّة. هل رأيت زوجي. خرج إلى الشارع وقال إنّه سيشتري الخبز. لكنّ الخبز لم يأت. وضعت الرغيف في فمي وبدأت أمضغ. هل رأيت الخبز يا ابني؟ تخرج المرأة مسرعة من الكوخ. الحقّ على أمّي. قلت لها يا أمّي لا أريد أن أتزوّج. أمّي ماتت منذ ثلاث سنوات. ماتت بدون حرب. كيف يموت الناس بدون حرب. مستحيل. لا يوجد موت إلاّ داخل الحرب. وضعت بندقيّتي جانبًا. قال طلال إنّه تعب، ثمّ سألني عن خسائرنا. لا شيء، قلت له. فقط سمير أصيب بشظيّة صغيرة.

كان الشارع الطويل الذي يشرف على الكنيسة يمتدّ إلى ما لا نهاية. حوانيت على الجانبين. والمرأة تضع الملابس في حرجها. اقتربت منها، كانت تبكي: هل رأيت الخبز يا ابني؟

سقطت القذيفة وسط برك الماء المنتشرة في كلّ مكان. ركضت المرأة. كان ثوبها يركض وشعرها يتدحرج على وجهها. اقتربت من الدبّابة ثمّ توقّفت أمامها. كان ثوب المرأة يتهدّل على الدبّابة. دبّابة تخرج من امرأة. امرأة تخرج من دبّابة.

تنحنح الرّجل. أنا من قرية سخنين. هل تعرفون سخنين؟ المسألة أنّنا بعد أن هاجمنا كوبانيّة اليهود عدّة مرّات، اضطررنا إلى التراجع. جاء جيش الإنقاذ. وطبعًا تعرفون جيش الإنقاذ. أمّا نحن فلم نكن نعرفه. اسمي صقر، لكنّهم يلقّبونني في التنظيم بصقر قريش. يا عمّي هذه الثورة جميلة. إنّها أفضل من الثورات السابقة. إنّها تهتمّ بالشهداء. أمّا في الماضي، فلم تكن الحكومات العربيّة تهتمّ لا بالشهداء ولا بالأحياء. المهمّ تعرّفنا على جيش الإنقاذ. قالوا إنّ جيش الإنقاذ سوف يأتي. انتظرناه. النساء ينتظرن. الأولاد ينتظرون. ونحن تعبنا. وفجأة سمعنا إطلاق نار في الهواء. يا هلا بالعرب. ورأينا الدبّابة عن قرب. في الحقيقة هذه أوّل مرّة أمسك فيها دبّابة بيدي. تقدّمت من قائد الدبّابة. وبعد التحيّات الرسميّة التي لا بدّ منها في مثل هذه المناسبات كما تعلمون، وضعت يدي على حديد الدبّابة. ما ألذّ الحديد. دبّابة ترفع الرّأس وأكثر. نزل العساكر في بيوتنا. استضفناهم. مضت ثلاثة أيّام وهم لا يزالون. أكل وشرب وطلبات. طلبات الجيش على الرّأس. الجيوش دائمًا على الرّأس، لأنّها تحمي الأوطان. يجب بناء الجيوش القويّة، بدون جيش لا حرمة لوطن. وبعد ثلاثة أيّام جاءني أبو سعيد. ولكن يا صقر جيش الإنقاذ لا ينقذ إلاّ بطون أفراده. ما هذا الجيش؟ يجب أن تكلّم قائد الدبّابة. ذبحنا الدجاج كلّه، ولم يعد هناك شيء في القرية. متى يحارب هذا الجيش؟ يا صقر، يجب أن نحتلّ الكوبانية قبل أن يحتلّ اليهود البلد. بعد التنحنح والسلام والكلام، فاتحنا قائد الدبّابة بالموضوع. ننتظر الأوامر، قال. قلت له اهجم على مسؤوليّتي. لا أستطيع، أنا

متطوّع مثلكم، أجابني، وأحبّ أن ننتهي من قصّة الكوبانيّة قبلكم جميعًا. بعد الحديث والنقاش وافق الضابط على الهجوم. للحقيقة كان ضابطًا مندفعًا. جمعنا في ساحة القرية. الدبّابة سوف تتحرّك على التلّة وتقصف الكوبانيّة. عليكم الثبات في مواقعكم. وعند إعطاء إشارة الهجوم تتحرّكون. لا أريد حربًا فوضويّة. النظام هو أساس الحرب. وافقنا جميعًا، رجل مقنع. تحرّكت الدبّابة من الساحة وبدأت تمشي ببطء وسط شوارع القرية الضيّقة. ثمّ غابت عن أنظارنا. بدأنا نتوزّع مجموعات في المواقع التي حدّدت لنا. ثمّ سمعنا صياح الضابط. ركضنا، فوجدنا الدبّابة متوقّفة وسط شارع ضيّق ولا تستطيع الحراك. بدأ الضابط يشتم. يلعن أبو الحرب، كيف نحارب بدون طرقات. جلبنا المعاول والرّفوش وبدأنا نحفر التلال كي نوسّع الطريق. وبعد جهد مضن استغرق ثلاثة أيّام، استطاعت الدبّابة أن تتحرّك وسط تهليلنا وتكبيرنا. المهمّ أنّ الدبّابة لم تقصف سوى قذيفتين، ثمّ تعطّل المدفع. لماذا لا نهجم يا حضرة الضابط؟ عليك أن تسأل ربّنا، يجيبني بتبرّم وعصبيّة. المهمّ، بدأ اليهود هجومًا من الكوبانيّة قبل أن نهجم نحن. ذهبنا إلى الضابط. ماذا نفعل؟ لا أستطيع أن أفعل شيئًا. سوف أنسحب. المدفع معطّل، ودبّابة بدون مدفع لا تساوي شيئًا. وعلى أيّ حال فالمعركة خاسرة. وغدًا تأتي الجيوش العربيّة وتحرّر فلسطين. انسحبوا معي الآن. ثمّ نعود بدون تعب. وافقنا. لا. بعضنا وافق. أنا والله لم أوافق. وأبو سعيد لم يوافق. قاتلنا. ثمّ ماذا نفعل؟ هجموا في حوالى عشرين دبّابة. ماذا أفعل؟ انسحبنا وتوكّلنا على الله، بعد أن مات منّا

الكثيرون. الحقيقة أنّنا دفنّا القتلى قبل أن نأتي إلى لبنان.

ابتعدت عن الدبّابة. وضعت منديلها على رأسها وأشارت إليّ إشارة الوداع. طبعًا لم أسأل إلى أين. فالقذائف المتفرّقة كانت تتساقط، ولا بدّ من الثبات في الموقع. لكنّ المرأة ذهبت دون أن أعرف ماذا جرى لزوجها.

ــ استولينا على دبّابة.

ــ ما هذا؟

دبّابة حقيقيّة يقودها نبيل. الجنود استسلموا، قالوا إنّهم لا يريدون قتال أخوتهم. طلبت إليهم أن يبقوا معنا. لكنّهم ذهبوا. قالوا إنّهم سوف يرجعون. مشت الدبّابة ومشينا خلفها. أريد دبّابة من كلّ الألوان. هل تعرف الألوان، يقول الفتى الزنجيّ. أنا لا أعرفها. لا أفهم معنى الألوان. كلّ شيء ملوّن إلى أقصى الحدود. وطلال يريد دبّابة ملوّنة. جاء الشّباب بجميع الألوان وبدأوا يطلون الدبّابة. أريد دبّابة حمراء، لأنّ الثورة بدأت. رائحة البارود في كلّ مكان. أصبح لبيروت رائحتها. في الماضي، لم أكن أستطيع تمييز رائحة بيروت. ولم يكن أحد يعرف أنّ لها رائحة. الجميع يشمّ رائحته هو، أو رائحة الخمور التي تختلط بالكولونيا الرديئة. أمّا الآن، فبيروت لها رائحة محدّدة. البارود في كلّ مكان، والشوارع الفارغة يسكنها الضباب، وأصوات القذائف تختلط بأصوات الصواريخ الكوريّة التي تعوي في الفضاء. عواء ورائحة.

ــ وماذا جرى للمرأة بعد ذلك؟

ـ لا أعرف.

أخذنا الدبّابة. لوّنّاها. أخذنا رشّاش الـ ٥٠٠ وثبّتناه في الكنيسة. اجتمع صبية الحيّ عليها. اقتادوا الدبّابة، ثمّ توقّفت. ربطنا حبلاً من الشبّاك إلى سبطانة المدفع. وكانت الثياب المنشورة من كلّ الألوان.

أمسك طلال الرّغيف، لا أعلم ماذا يجب أن نفعل. يجب أن تبدأ الثورة. لكنّها بدأت، يقول سالم. أنتم لا تفهمون ما هي الثورة. هذه هي الثورة. هكذا تكون الثورات. هل تعلم لماذا الرّغيف مدوّر؟ لأنّه رغيف. لا يمكن أن يكون الرّغيف إلاّ هكذا. مثل المقبرة. المقبرة مدوّرة، لكنّنا لا نراها من الداخل. جميع الأشياء هكذا. لا نرى سوى سطح الأشياء. رائحة البارود تنتشر، ونحن نقف تحت شمس شتائيّة، نحمل بنادقنا، نسترخي. طلقات متفرّقة.

رجل يقترب. أنتم لا تعرفون عمّيق. تأكلون العنب وتشربون العرق لكنّكم لا تعرفون عمّيق. هناك العنب. وأبي رأسه يابس. لا تعرفون الطريق، تعالوا، أنا خدمت في بيروت وأعرف جميع شوارعها. لكنّ الجبل أجمل. ومنظر العنب وهو يتدلّى يفتح شهيّتي على العرق. أنتم لا تشربون العرق. هذا خطأ. العرق شيء مهمّ. نار. يدخل العرق إلى جوفي وتدخل النار. يجب أن يشتعل الإنسان. العرق وحده يشعل. أضع العرق في جوفي وأسرق. هل تعلمون ماذا فعلت؟ بعد كلّ الذي جرى، علمت أنّ الدولة تفرط. أخذت الملاّلة التي أقودها وهربت بها. حدث هذا قبل أن ينهار كلّ شيء. هربت

بالملاّلة وحدي من حوش الأمراء إلى عمّيق. خرج أبي، لم يكن مندهشًا. أخذ الملاّلة وربطها أمام البيت. نهضت في الصباح فلم أجد الملاّلة. يجب أن أذهب بالملاّلة وألتحق بالثورة. سألت أمّي، قالت إنّ أبي أخذ الملاّلة وذهب إلى الكرم. ركضت إلى الكرم. رأيته يحاول أن يربط إلى الملاّلة أدوات حديديّة. أريد أن أفلح. والله الملاّلة أفضل من التراكتور. أصبحت الملاّلة حديث القرية. جاء المختار مهنّئًا واقترح إنشاء تعاونية زراعيّة. ولكن يا مختار، منذ زمن طويل وأنتم تفلحون أرضكم بالتراكتورات، ولم نقترح عليكم إنشاء تعاونيّات. التراكتور ملكيّة خاصّة، أمّا الملاّلة فهي ملكيّة عامّة. هكذا يقول المختار الذي يفهم. تناقشنا، تصايحنا، بدا وكأنّ الأمور لن تحسم بشكل سلميّ. يا مختار لم يعد هناك ملكيّة خاصّة. كلّ شيء مباح. هبطت السماء على الأرض. لكنّ المختار يريد أخذ الملاّلة وأبي يريد الاحتفاظ بها. ومن أجل تلافي المشاكل سرقت الملاّلة من أمام البيت وعدت بها إلى الثكنة. وكان كلّ شيء قد انتهى. ولم يعد هناك أحد يركب على ظهر أحد. هكذا قالوا لنا. لكنّ القتال في المدن صعب. لا تستطيع أن تقتل عدوّك إلاّ بعد جهد غير عاديّ. هذه ليست حربًا. لا أعلم. ربّما كنتم على حقّ. لكن كلّ شيء فرط.

المرأة الكرديّة تسأل عن زوجها، وزوجها يتمدّد باردًا وسط الشارع.

ـ سوف يتعفّن في الشارع.

ـ ننتظر اللّيل ونسحبه. تكرمي.

انحنت. كانت تحمل رغيفًا مستديرًا. قضمت لقمة. الله يكرمك. ولكن لا تنسوني.

ـ لن ننساك.

وكان هو، يتمدّد على بطنه. رجله ترتفع قليلاً عن الأرض، والأرض المبلّلة بالوحل والتراب والغبار تحيط به.

* * *

«ماذا كنت تفعلين قبل ثلاثمائة عام في الحدائق القديمة؟»

كان الجبل مثقوبًا لكنّه يتقدّم. وكانت النساء تقف في صفّين طويلين بانتظار الحرب. لكنّ الحرب لم تأت. منذ ثلاثمائة عام ونحن ننتظر الحرب. لكنّ الحرب تأتي دائمًا وهي تحمل ثقبين كبيرين: ثقب إلى الأعلى حيث يرتفع عنق المرأة فتختنق، وثقب في الوسط قبل أن نولد. الجبل الذي يتقدّم، كان مثقوبًا، مثل الحرب. الجبل يشبه الحرب. قلت له. وتدحرج صوتي بين أقدامنا التي تتدحرج في القرية، حيث اللّيل، وسكون غريب، ورياح باردة. وصلنا إلى الغابة. بيت عتيق مهجور، وأشجار صنوبر. ونحن نضع النار داخل كوم الحجارة، حتّى لا يراها أحد.

ـ هل ترى الأشجار؟ لقد بدأت حرب الشعب. تحتاج حرب الشعب إلى الأشجار. من أجل فيتنام على الأقلّ.

أدغال ومستنقعات. أشجار ورماد ونار بدأت تنطفئ. منذ خمسين سنة ونحن نعيش الحروب. انحنت البندقيّة قليلاً قبل أن يضعها على الأرض.

ـ الحرب ضمير مستتر تقديره نحن. الآن انكشف الضمير المستتر.

ليس هذا مهمًّا، يقول طلال. انظروا إلى الجبل. هذه هي المرّة الأولى التي نصعد فيها إلى الجبل. نبيل يحلم بالرّمل. أنا لا أحبّ الجبال.

ـ لماذا أتيت إذن؟

ـ واجب وطني. ثمّ يبتسم. الحرب في بيروت أجمل.

ـ مستنقعات وبعوض. أنت تحبّ المستنقعات.

ـ أنا أحبّ المدينة.

أنا أحبّ النّساء، يقول طلال. اللّيلة، سوف ننتقل من شرف الثورة إلى شرف الموت. الموت حالة هادئة. وسط الرّصاص والقنابل والدويّ، تقفز وتقفز. ثمّ تسقط في الهدوء، الهدوء الكامل.

لكنّ الجبل مثقوب.

تقف امرأة بيدها طعام كثير وحولها نساء ورجال. رأينا النّار فأتينا بالطعام. وضعت المرأة الطعام وذهبت. أكلنا. الطعام يتجمّد في حلقي. يجب أن أثقب عنقي، عندها أصبح جبلاً.

الجبل هو الملك. صنّين هو الملك. لكن من يستطيع أن يتسلّق هذا الجبل العاري. لا يمكن نقل هذه الأعتدة دون بغال. البغل هو الملك الحقيقيّ. نصعد. نحمل الذخائر على ظهر البغل، نمشي وراءه ويقودنا إلى القمّة. الثلج والضباب

والطلقات الحمر التي تخترق اللّيل. ينحني طلال. يضع نظّارتيه. منذ ثلاثمائة عام كان الفتى النحيل ورقة مرميّة على الشاطئ. التقطها عابر سبيل ووضعها في جيبه. وكان العرّاف الصينيّ القديم ينتظر. ولم يكن الرّجل يعلم أنّ الأشياء تنتظر. أخذ العرّاف الصينيّ الورقة وتكلّم. لم يفهم الرّجل. وعندما رجع ليسأل وجد أنّ العرّاف قد مات. وإنّ الأرزّ الذي كان ينمو في الشارع صار خمرًا محرقة. لكنّ الفتى الزنجيّ يتسلّق عنقي. لا يتكلّم، لا يسأل. يحلم بأن لا يسافر لكنّه سيسافر. وإلى جانبي ينام رجل طويل القامة، كثّ اللّحية. يضع يديه خلف رأسه وينام بين قطرات الماء التي ترشح من سقف الخيمة، وبين الثلج الذي يغطّي الثلج.

ـ تعالوا نشعل نارًا على القمّة. يجب أن تشتعل قمّة الجبل. ماذا سيحصل؟ بضع قذائف... بسيطة.

أشعل نارًا. رفع يديه إلى أعلى. خلع قميصه الكاكيّ ولوّح به في الفضاء.

هنا ينام الحجل. هنا يموت الحجل، قال أحد المقاتلين بلهجته القرويّة التي لا تخطئ. يترصّدون الحجل ثمّ يقتلونه. البغل ينزف. أصيب بشظيّة في خاصرته. ينظر إلى الأرض، لا يئنّ، يترك الدم يسيل على بطنه دون أن يتحرّك. البغل هو الملك. وكان صنّين رماديًّا. ثلج وبقع رماديّة ومساحات لا تحصى. نحن أعلى من الغيوم قال الرّجل الكثّ اللّحية وهو يمسك قطعة اللّحم المعلّب بين يديه ويمضغها كأنّه يأكل الشوكولاتة. لا بدّ من الأكل. غدًا سوف تأكلون مثلي. أنا

رجل متزوّج. يعني عمليّ. أفهم. أعرف أنّ المرأة لا ترضى. إذا ضاجعتها تتبرّم من كثرة المضاجعة. وإذا لم تضاجعها تتساءل عن معنى الزواج. وزوجتي التي تركتها منذ ألف سنة لا تفهم. تعتقد أنّي لست جدِّيًّا. لكن انتهى الموضوع. أنا أقف على أعلى قمّة في أعلى جبل، وأقرّر نهائيًّا، أنّ هذه الزوجة التي تشبه جميع الزوجات لا تصلح للزواج. لا تنظروا إليّ هكذا. لا بدّ من الأكل. لا يمكن احتمال البرد دون أن نأكل الهورمونات والڤيتامين. ولا يوجد خبز. لقد فسد الخبز. ابتلّ بالثلج وأصبح قطعة من طين. لا يمكن أن نأكل الطين، ولا يمكن أن نمزج اللّحم بالثلج.

على القمّة، حيث كلّ شيء يشبه كلّ شيء. كانوا ثلاثين رجلاً، ينامون بين الثلوج. يضعون بنادقهم في أعناقهم وينظرون إلى وجوه بعضهم. يطرحون الأسئلة. نبيل يقفز. لاعب الفوتبول يقفز هربًا من البرد. والقذائف التي تتطاير تشعل الثلج. والطائرات تخترق الضباب من حين إلى آخر، لكنّها تبقى بعيدة. لأنّ الجبل أصبح بعيدًا.

اتّكأ الرّجل الكثّ اللّحية الذي اسمه نزيه على كوعه الأيسر، تمدّد فوق حرام صوفيّ موضوع فوق بقع الثلج والأرض الرماديّة، أنا تعبان، قال. لا، الحرب متعبة، لكنّها لا تشبه النّساء. لماذا يمزجون عادة بين الحرب والنّساء؟ السينما سخيفة. دائمًا في الأفلام، يجب أن تكون هناك حروب وإلى جانبها نساء. حتّى تشي غيفارا وضعوا إلى جانبه امرأة. ودائمًا يموت البطل وتبقى المرأة كي تبكيه. طبعًا، زوجتي

سوف تبكي. إنّها مثل جميع الزوجات، لذلك يجب أن تبكي. لكن حتّى الموت الذي هو مسألة المسائل ليس مشكلة. إنّه مشكلة تافهة داخل الأمراض. عندما يكون الرّجل مريضًا يمتلئ رأسه بالمشاكل ويبدأ بطرح الأسئلة. أمّا عندما تكون صحّته جيّدة كصحّة البغل فإنّه يتصرّف ببساطة البغل.

وقف طلال إلى جانبي وهو يمضغ حبّات الفول الباردة المعلّبة، في محاولة لإيقاف جوعه.

ـ لماذا تتكلّم عن الموت والنّساء؟ يجب أن تتكلّم عن النصر.

النصر ثوب مثقوب، يقول نزيه. هل ترى الغيوم القريبة؟ تستطيع أن تلمسها بيدك، لكنّك لا تستطيع الإمساك بها. هكذا نحن. نستطيع ملامسة النصر، لكنّنا لا نستطيع الإمساك به.

التمعت الطلقات فوق رؤوسنا، ثمّ بدأت القذائف ترسل أنينًا خافتًا يسحقه صوت ارتطامها بالأرض. كانت الحجارة تتطاير فوق رؤوسنا، وسمير بلحيته وحنانه، يقفز مرحًا، يطلق الرّصاص، يتدحرج بين الصخور. لا أرى شيئًا. الضباب كثيف، يصرخ. لكنّ نبيل لا يجيب. يجثو، يطلق مشدودًا، شتائمه تسبق طلقاته. أمّا نزيه، فكان منبطحًا على الثلج، مسترخيًا، يطلق بهدوء. يلتفت إلى يمينه حيث يرى طلال بأعصابه المشدودة، وهو يقاتل كمن يصلّي داخل كنيسة. يتوقّف إطلاق النار فجأة. يأتي سعيد راكضًا. لقد هربوا وتركوا هذا. يمسك مخزن الرشّاش بيده. هذا الشّكل من الحرب لا يكفي، يقول سمير.

ــ ماذا تقترح؟

ــ يجب أن نرميهم بالحجارة. البندقيّة بندقيّة، أمّا الحجر فهو جزء من يدي. يجب أن أشعر أنّ يدي هي التي تقاتل، وليس هذا المعدن البارد الذي لا يلبّي الحاجة.

يبتسم طلال. لقد جعلك هذا الجبل بدائيًّا.

ثلاثون رجلاً يقفون على رأس الجبل. يشعلون النار ويرقصون. يأكلون اللّحم المعلّب. ينزحون إلى ذكرياتهم. يجب أن نتوقّف عن حكاية ذكرياتنا، يقول سالم. نحن نصنع المستقبل، الذكريات لا تصنع المستقبل، لكنّ الذكريات تمتزج بالأغاني والأهازيج. صوت أحمد يرتفع، يشقّ الصخور، يتواصل مع الرّياح الباردة. أنا ملك الجبل، يقول أحمد.

ــ نحن حشرات مرميّة في هذا الفضاء الواسع. جبال، نصغر ونحن نتسلّقها.

ــ هذا كذب. نحن نكبر والجبال تصغر. دائمًا يقولون هذا. الإنسان داخل الطبيعة يصبح حشرة صغيرة. ولكنّ هذا ليس حقيقيًّا.

أنا أصبحت أكثر طولاً، يقول سالم.

أنا أطول رجل في العالم، يقول سمير.

نحن هم الملوك الحقيقيّون، يقول طلال. ولكنّ هذين البغلين يشاركاننا على العرش.

كان الفتى الزنجيّ النحيل يركض. توقّفي قليلاً، قلت لها.

لكنّها تركض، والرّمال تتطاير من قدميها العاريتين. سقطت على الأرض. سوف أضعك في علبة صغيرة وأضع العلبة الصغيرة في جيبي. لأنّك لا تستحقين أكثر. ضحكت. أنا لا أحبّ الأسرى.

ـ وأنا لا أحبّ الأسرى، لكنّني مجبر.

ـ مجبر. جميع الطغاة يقولون ذلك، عندما تحرجهم الحقيقة، يبدأون في رواية مأساتهم التي تتلخّص في كونهم مجبرين على ممارسة الطغيان. أنت مثلهم.

رجلي تكبر. الثلج يتمدّد داخل حذائي. أنظروا، يقول طلال. ألوان أقواس القزح تختلط ببعضها. جميع الألوان التي رأيتها والتي لم أرها. الجبل يفتح فمه والشمس تتدحرج. جبل يتدحرج بين الغيوم. ألوان تشبه البحر، لكنّ البحر مسطّح. والألوان تتشكّل فجوات مستديرة. تمتدّ يدي، لا تلتقط شيئًا. الجبل المثقوب يتحرّك. نحن نركض باتّجاه الوادي، والوادي يضمّ جسدي، يقطعه إلى نصفين، والبحر البعيد يدخل بين الغيوم. أمدّ يدي إلى وجهي. وجهي تفّاحة كبيرة تهرم. ويدي تمتدّ إلى الشمس التي تسقط في عيوننا، وهي تتدحرج بين اللّهب وفم الحوت الذي يتأهّب لابتلاعها.

حمل المقاتل القرويّ حذاءه ومشى حافيًا. أمس كانت الشمس تحرقنا، واليوم أتى الضباب والشتاء وأخذوا الشمس إلى كعب الوادي. لكنّ المشكلة هي في هذا الحذاء اللّعين. يبقى مبتلاً. أمشي وكأنّي أحمل الجبل في رجلي. أصابع قدميّ أصبحت متورّمة، ولم أعد قادرًا على لمسها. الثلج ضدّ

الحروب. حمل حذاءه ودخل إلى شيء يشبه الخيمة. الماء في كلّ مكان. رائحة الصوف المبتلّ تشبه رائحة الغنم قبل ذبحه. والله، الجزّار ملك. ماذا يهمّه. يفعل ما يشاء. يذبح ويبيع ويستطيع أن يأكل إلى ما شاء الله.

ما هذا التموين؟

كان لساني ناشفًا وجوفي يحترق. دخلت إلى الخيمة فوجدت المقاتل القرويّ يتناقش مع نزيه في السياسة. كان نزيه متّكئًا على يده اليسرى، يرتجف قليلاً من البرد. وجهه أحمر بالشمس والضباب. يرفع يده اليمنى، ويتكلّم إلى ما لا نهاية.

ـ يجب حلّ المسألة الشرقيّة بشكل نهائيّ. منذ ثلاثمائة عام والغرب يغرس سكّينه في خاصرتنا باسم المسألة الشرقيّة وحقوق الأقلّيّات. يجب أن ننتهي من المسألة إلى الأبد.

جلست إلى جانبهما واستمعت. ثمّ بدأ النقاش يحتدّ. وارتفع صوت المقاتل القرويّ. نظرت إليه، كان يحمل في يده ليمونة تتوهّج في الخيمة المعتمة. كانت اللّيمونة تشارك في النقاش على طريقتها الخاصّة. تنتقل من اليد اليسرى إلى اليد اليمنى في حركة بطيئة. ثمّ حين يحتدّ النقاش ويصمت، تأتي اللّيمونة لتشقّ الصمت في حركة متسارعة بين اليدين، وكأنّه أصبح أحد الحواة، الذي يستطيع إدخال اللّيمونة في أذنه فتخرج شجرة من فمه. يضع اللّيمونة فوق البطّانيّات المبتلّة التي تكدّست فوق بعضها. ينحني نزيه، يمدّ يده، لكنّ يد القرويّ أكثر سرعة. يمسكها، ترقص بين يديه، ثمّ يتركها تتدحرج قليلاً.

ـ ولكن من أين جاءت اللّيمونة؟

يتجاهل السؤال. ثمّ يأخذ صوته نبرة خاصّة.

ـ يجب الاعتناء بالسّلاح في هذا المناخ، فالماء يتسرّب إلى داخله. المهمّ، يجب أن نتابع القتال. هكذا تريدون. أنا موافق. شرط أن لا نبقى هنا على رأس الجبل، وسط هذا البرد الذي لا يطاق.

تدحرجت اللّيمونة. أمسكها طلال. قفز المقاتل القرويّ.

ـ أريد اللّيمونة. هذه ليمونتي الخاصّة.

ـ لا توجد أملاك خاصّة في الثورة.

قفز. أمسك اللّيمونة وسحبها من يدي. جلس في زاوية الخيمة وحيدًا هو وليمونته. تقدّمنا منه. وضع اللّيمونة خلف ظهره.

ـ يجب أن نذهب إلى بسكتنا. هناك نجد بيوتًا وأشياء نأكلها.

التمعت السماء بأصوات الرشّاشات البعيدة. وقف نزيه. بدأت المعركة. يجب أن نأكل هذه اللّيمونة قبل المعركة، نتقاسمها نحن الثلاثة. وقف طلال، أمسك بندقيّته. وضع المقاتل القرويّ اللّيمونة في جيبه، وبدأ يحاول انتعال حذائه. كلّنا جاهزون. لكنّ اللّيمونة هربت. اختفى ثمّ عاد ورائحته ليمون. من رأسه إلى حذائه كانت رائحة اللّيمون تنتشر.

ـ ماذا جرى لليمونة؟

ـ تحوّلت اللّيمونة إلى شجرة. هذا الرّجل أصبح شجرة.

كانوا أمامنا، لكنّهم ليسوا كالبشر. طبعًا رجل عاديّ. لكن لا. نطلق النّار، يسقطون في حركة تشبه الحركة المسرحيّة. لم أكن أرى جيّدًا. لكنّهم كانوا يسقطون. تصبح الحركة بطيئة. يسقط الرّجل وكأنّه يمثّل. لست متأكّدًا من أنّه رجل. في الواقع لا أعلم. لقد قمنا بعمل ممتاز. لا يمكن اختراق هذا الجبل. نحن حرّاس الثلج والبرد. لكن لا أعلم، ربّما كان ذلك غير واضح أو مفهوم. أنا متأكّد. القتل مسألة أخرى. هنا، كأنّي أطلق على حجر. في الواقع كنت أطلق على أهداف، مجرّد أهداف. وكانت الأهداف تتصرّف بوصفها أهدافًا. هذا كلّ ما في الأمر..

يخلع طلال نظّارتيه، يمسح الوحل الممتزج بحبّات العرق. جاء نزيه. لقد ماتت الشجرة. المقاتل القرويّ، بحذائه الكبير، ووجهه المحروق بالثلج والضباب، يتقدّم محمولاً على البغل. ينام وحوله ثلاثة رجال يقودون البغل الأبيض، ويمسكون بالقرويّ.

توقّف البغل أمامي. انحنى طلال. رائحة الموت تشبه رائحة اللّيمون. الموت شجرة ليمون. عندما أموت أريد أن تكون رائحتي مثل رائحة شجرة اللّيمون.

عدنا إلى الخيمة. تقدّم طلال من حقيبة المقاتل القرويّ. فتح الحقيبة.

ـ أنظر، ليمونة أخرى كانت تنتظر نهاية المعركة.

أمسك نزيه اللّيمونة، قسمها إلى نصفين، أخذ نصفها، اعتصره، فتساقطت قطرات اللّيمون في فمه وعلى لحيته.

ـ نشرب نخب الشهداء. لماذا لا تأكل؟

ـ لا أستطيع.

ـ أنت رومنطيقيّ. ألا تريد أن تصبح رائحتك مثل الشجرة؟

وضعت اللّيمونة في فمي. كان طعمها حادًّا. أكلتها دون أن أقشّرها. أكلتها كلّها. وأصبحت رائحة الخيمة تشبه رائحة حقل اللّيمون الواسع، الذي يمتدّ من صيدا إلى آخر العالم.

* * *

أنا هو الاحتمال الأخير، قلت لها. وكانت خطواتنا تسقط على طرقات المدينة المعتمة. أصوات خشخشة الثياب. كلمات، نقولها دون أن نقول شيئًا. أمامنا تمشي سيّارة اللاّندروفر المحمّلة بالذخائر والطعام. ونحن نمشي، نتهامس ونستمع إلى تهامس القرويّين وهم ينظرون إلينا بإعجاب. نعجب بأنفسنا. نفتخر، كما كنّا نحلم بأن نفتخر عندما كنّا صغارًا. نحن صغار، ولكنّنا نفتخر كما يجب أن نفتخر.

خطّ طويل من المقاتلين الذين جاؤوا من كلّ مكان إلى العرس الذي لم يبدأ. دخلنا سراي المدينة. قالوا إنّ هذا المكان يستطيع وحده استيعاب مئات الفدائيّين الذين جاؤوا من كلّ مكان. أضواء شموع. دهاليز طويلة. ندخل وندخل ولا نفهم أين نحن. وجدنا أنفسنا في غرفة مستطيلة وكبيرة جدًّا. النوافذ عالية ومحاطة بالأسلاك.

ـ نحن في السجن. جئنا لنحارب فوجدنا أنفسنا في السجن.

مبدئيًا، أنا لا أوافق. لا يمكن أن ننام في السّجن حتّى ولو كان السّجن فارغًا. وحتّى إذا ألغينا السّجون، لا يمكن. الفدائيّ لا يمكن أن ينام في السّجن. هذا موقف مبدئيّ. لست مستعدًّا أن أوافق.

سالم، وقاذف الـ ب ٧ في يده، ووجهه الذي يرتجف على حائط السّجن. يرتفع صوته. لن أنام في السّجن. أنا جئت لأحارب ولن أنام هنا.

يتقدّم طلال من الدائرة التي تتحلّق حول سالم. يقف كالخطيب ويتكلّم متمهّلاً. المسألة ليست مبدئيّة، المسألة عمليّة. لا يوجد مكان يتّسع لنا سوى هذا السّجن. ثمّ، هذا جميل. تخيّلوا معي. نخرج من السّجن لندمّر السّجون. الثورة تبدأ من السّجن. أعتقد أنّ المسألة غير مدروسة. لكنّها تأتي كأنّها مدروسة. كأنّها تريد أن تقول إنّ السّجن هو الذي يدمّر السّجون.

أنت رومنطيقيّ، أقول له.

أنا رومنطيقيّ، يجيبني.

والجبال التي تمتدّ كانت تمتدّ. يجب أن نتعرّف على المنطقة بدقّة، يقول نبيل.

النقاش يتّسع. حلقات صغيرة تتوزّع في الزوايا والممرّات. والضوء الشّاحب يصبح أكثر شحوبًا. والقذائف تختلط بالنعاس. ثمّ، وفي حوالى التاسعة مساء، كانت القاعة

بأسرها نائمة. الشموع نائمة، وأنا نائم، وطلال ينام إلى جانبي. حتّى القذائف بدت وكأنّها تريد النوم. يونظني طلال.

ـ هل تعرف لماذا ننام بهذه السرعة؟

التعب، قلت له. وكان صوتي يختلط بالتثاؤب والنعاس.

ـ لا، ليس التعب. إنّه السّجن. السّجن بعني النوم. مجموعة مشاكل صغيرة، ثمّ يهرب الرّجل إلى النوم. عندما تنام تستطيع أن تتجاوز الممنوعات. تهرب إلى شيء هو لك وحدك. النوم هو لي وحدي. لا يشاركني فيه أحد. أنام كما أشاء. أحلم. أتقلّب. لأجل هذا السبب ننام نحن، وينام السجناء.

ـ ولكنّني لست سجينًا.

ـ طبعًا سوف نحطّم السّجون. ولكن من أجل تحطيم السّجون، كان لا بدّ من دخول السّجن.

ـ أريد أن أنام. وبعد ذلك، أنت تناقض نفسك.

ـ الحياة هكذا. التناقض لا يعني أنّني أناقض نفسي. التناقض يعني التناقض.

ـ النوم يعني النوم.

أدرت ظهري وحاولت أن أنام. لكنّ طلال لا ينام. وأبي يقول إنّ السّمك في البحر لا ينام. لكنّي لم أسأله أين ينام السّمك إذن. أبي يصرّ على أنّ السّمك لا ينام. وطلال لا ينام. ويدي لا تطال سقف السّجن العالي. نهضت، كانت الشهب

الحمر تلتمع من النوافذ الصغيرة العالية. خطواتي تزحف على البلاط المغطّى ببطّانيّات الصوف الناشفة. وفي الغرفة الجانبيّة، أصوات وهمهمة. تقدّمت، شاهدتهم من خلف القضبان. أربعة رجال. كلّ واحد يجلس بمفرده في زاوية معتمة. شمعة وحيدة ترتجف. تقدّمت من القضبان. تقدّم أحدهم باتّجاهي، ثمّ تحرّك الآخرون. فتح الأوّل فمه، ثمّ تبعه الآخرون. خرج صوت واحد بتدرّجات متفاوتة، كأنّنا في مسرح يونانيّ. لم أفهم، قلت لهم. أنا سجين، قال أحدهم.

ـ وأنا سجين مثلكم.

ـ ولكنّك تحمل رشّاشًا.

ـ غدًا، أعطيكم رشّاشًا.

تراجع أحدهم وقد بدت الخيبة على وجهه.

ـ أنت تسخر منّا.

ـ أنا لا أسخر منكم. هذا رأيي، غدًا أعطيكم سلاحًا. ولكن لماذا، لماذا أنتم هنا؟

ـ المسألة معقّدة. قالوا إنّهم يخافون عليّ. أنا من قرية بعيدة، وأنت تعرف الأجواء.

جاء طلال ونبيل وأشخاص آخرون. بدا طلال مهتمًّا بالموضوع.

ـ غدًا، سوف أوصلك إلى قريتك. لا يوجد سجناء هنا. لقد ألغينا السجون نهائيًّا.

ـ غدًا، سوف أعطيك بندقيّة وتأتي لتحارب معنا. هل تقبل؟

ـ لكنّي لا أعرف القتال.

ـ تتعلّم القتال وأنت تقاتل. هل تخاف؟

ـ طبعًا يخاف. أنا أخاف. كلّنا نخاف. الشجاعة خدعة. لا وجود للشجاعة. الخوف قبل أو بعد. قبل أو بعد دائمًا نخاف. نخاف من السّجن قبل أن ندخله. نخاف من الموت قبل أن نموت. نخاف من الحرب بعد أن تنتهي المعركة. نخاف من المرأة قبل أن نتزوّج.

ـ لا. نخاف من المرأة بعد أن نتزوّج.

تكوّم السّجناء حول السّجين الذي يخاف. وتكوّمنا نحن حول نبيل الذي لا يخاف. وفي النهاية يجب أن ننام. ارتفعت أصوات القذائف حول السّجن، وكان حزني يرتفع. حزن طلال، غطّى حزنه أيّام السّجن الثلاثة التي قضيناها ونحن ننتظر إخراج السّجناء. طلال في الزاوية، يعدّ القذائف وينتظر دوره. ثمّ جاء آمر الفصيل، أخبرنا أنّنا سوف نعود. لأنّ العمليّة ألغيت. ولكن ماذا سنفعل بالسّجناء سأل طلال. قال آمر الفصيل إنّ المسألة معقّدة، تحتاج إلى وقت واتّصالات. نحن لا نستطيع التصرّف. نتركهم مؤقّتًا. لا بدّ من أن يخرجوا في النهاية.

كلّ شيء مؤقّت، قالت، وهي تحمل في يدها صورتها. أنظر إلى صورتي.

أنت أجمل من الصورة. رفع طلال الكاميرا إلى كتفه. ارتفع الفتى الزنجيّ النحيل، اختلط بالرّمل وقطرات المطر.

أتكلّم، لأنّي حزين. نموت مثل الذباب. منذ أيّام المغول أو قبلهم أو بعدهم، ونحن نموت مثل الذباب. نموت دون أن نفكّر. نموت من الأمراض، من البلهارسيا، من الطاعون، من الولادة، من عدم الولادة. نموت مثل الذباب. بدون وعي، بدون كرامة، بدون شيء.

ـ لكنّك تدعو للحرب. والحرب تعني موت مزيد من النّاس.

ـ الثورة تعني الحياة.

ـ لكنّهم يموتون.

ـ يموتون بوعي. الوعي ضدّ الموت. لا نستطيع إلغاء الموت إلاّ بالوعي. ننتهي من موت الذباب، وندخل في الموت الحقيقيّ.

ـ الموت يلغي الوعي. الموت يلغي الوعي، هل تسمع؟

ركضت، وضعت الرّمل على شعرها، وبدأت تحرّك رأسها.

ـ أنت بورجوازيّة وأنا لا أحبّك.

ركضت ولم أركض وراءها. حملت حذائي في يدي، ومشيت بطيئًا إلى السيّارة. إلى أين؟ صرخت. ألن تأخذني أسيرة وتضعني في العلبة؟ فتحت باب السيّارة، أدرت محرّكها، وذهبت.

* * *

الثلج يتدحرج فوق رؤوسنا. الضباب، والجبل الكبير ينحني أمام أقدامنا. العدو يتقدّم، يحاول التقدّم، لكنّنا نقف على القمّة مثل الآلهة. لا نتزحزح. نتقدّم ببطء، والبغال البيض تتقدّم ببطء إلى جانبنا، وأصوات الطلقات اختلطت بأصواتنا. الأقدام تورّمت وأصبحت جزءًا من الثلج والبقع الرماديّة. ونحن لا نزال. نعود إلى الذكريات. نروي حكاية السّجن. نتذكّر السّجناء الأربعة. كلّ واحد يروي القصّة كما يشاء، أو كما يتذكّرها، أو كما هي فعلاً. والطلقات ترنّ في الفضاء الواسع، حيث الشمس التي تتدحرج، والثلج الذي يتساقط، والألوان التي لا تشبه الألوان. كان حلقي جافًّا. يدي تتخشّب حول البندقيّة. نستمع إلى أصواتهم. يشتمون ونشتم ونطلق النّار. نحتاج إلى حجارة سمير، يصرخ نزيه. وبعد لحظات انسحبوا. كنّا نجلس بهدوء حول بنادقنا، حين قفز سالم، صرخ بصوت كالجبل: من هناك؟ ركض باتّجاه رجل، اعتقدته لأوّل وهلة أحد رفاقنا.

ـ من أنت؟

ركض طلال، ركض نزيه. أخذوا بندقيّته.

ـ من أنت؟

صوته يرتجف. تكلّم دون أن يقول كلمة واحدة.

ـ من أنت؟

ـ أنا راعي غنم.

ـ والبندقيّة؟

ـ أنا ضائع.

صرخ نزيه، أسير، امسكوه جيّدًا. اربطوه بالحبال. تقدّم نزيه وضربه على وجهه. أهلاً مسيو فاشستي، وصلت الرّسالة. لا تضربوه، صرخ سالم. ركض طلال، أمسكه من ذراعه، تعال.

أنا طالب، قال. نحن مجموعة التبديل. تركوني في الجبل. لا تقتلوني.

كان يرتجف مثل الأسرى، ونزيه يرتجف مثل الفاتحين، وطلال يرتجف. أمسكته من ذراعه اليمنى، أمسكه طلال، وأخذناه إلى الخيمة. سقيناه كوب شاي ساخن. ماذا يجري للسجناء الأربعة؟ سألني طلال. جاء نبيل، يجب أن نقتله فورًا. أولاد الكلب، الفاشست.

الأسير يرتجف، لن نقتله، يقول طلال، إنّه فقير مثلنا.

ـ لماذا يقاتل معهم؟

ـ متى يصنع الفقراء حربهم الخاصّة.

ـ لا توجد حرب خاصّة بالفقراء. يجب أن تدمّر البنايات البنايات، والأكواخ البنايات، والمدن المدن، ومن الدمار، تخرج حرب الفقراء الخاصّة.

جلس طلال إلى جانب الأسير، وبدأ يتكلّم. أخبره عن الجنوب، وعن فقراء النبعة، وعن تلّ الزعتر. أخبره أنّ عمّان كانت تحترق، وأنّ اللّيمونة لم تمت. أخبره قصّة السّجن، وقصّة حبّنا للسّجناء الأربعة. كان الأسير مقتنعًا. دائمًا يقتنع

الأسرى بسهولة.

ـ ولكن لماذا تقاتل معهم؟

لا تقتلوني، أرجوكم، يقول الأسير. لن نقتلك، يقول طلال. لكن تكلّم. أنا مقتنع، يقول الأسير. دائمًا، يقتنع الأسرى بسهولة. ويموت الأسرى بسهولة.

* * *

أنا هو الاحتمال الأخير، قلت لها. الموت هو الاحتمال الأخير يقول نزيه، وهو يمشي خلف البغل الأبيض، الذي يتعثّر في مسيرته بين التلال الوعرة. وطلال، ينام هادئًا، يتهادى على صهوة البغل. طلقة في الرّأس. وقطرات دم تتساقط، وتسيل على بطن البغل الأبيض. الموت هو الاحتمال الأخير، قال لها. والسّجناء الأربعة، لا يزالون يحلمون بالبندقيّة. والجبل يرتجف تحت الأقدام. الموت هو الاحتمال الأخير، أقول لها. والرغيف يجفّ في يدي. وطلال ينام مستسلمًا كملك حقيقيّ. وصنّين لا يجاوب.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

٤ ــ الدرج

- ١ -

المرأة تسقط من السّقف. عيناي معلّقتان في القدمين. امرأة تتدلّى من السّقف. لم أعد أفهم شيئًا. الحقيقة أنّني لم أعد أفهم شيئًا. منذ سنوات وأنا أخاف من السقف. السّقف منخفض. البنايات عالية والسقف منخفض. كنت أقول لزوجتي إنّني أخاف من السّقف المنخفض. لكنّها امرأة حديثة، تحبّ البنايات الحديثة وترفض أن تقيم في القرية. وماذا سيجري لأولادنا، أقول لها. لا شيء، تجيبني. سوف يقيمون في بيوت حديثة وجميلة، وليس كهذا البيت القذر كصلعتك. لكنّهم سيقيمون في بيوت أكثر انخفاضًا ويصبحون كالجرذان. امرأة حديثة معها حقّ. وأنا كذلك رجل حديث ومعي حقّ. اشتريت السيّارة وكنت أقودها مثل الرّجال الآخرين. زوجتي إلى جانبي، والأولاد الذين يشبهون الحيوانات الأليفة في المقعد الخلفيّ. ثمّ كلّنا نحبّ الأشياء الحديثة. وبعد ذلك لا أعرف. لكنّ المرأة تتدلّى من السّقف وكأنّها تسقط. لا، إنّها لا تسقط. وأنا أقف جامدًا، أسمع أصواتًا وأحاول أن أفهم معنى الكلمات. لكنّي لا أفهم. يجب أن نفهم الأشياء بالضّبط. هذه

بالضبط لم أعد أستوعب معناها، رغم أنّي رجل يحبّ القانون ويحبّ رجال الشّرطة. وهاني المجنون ماذا يفعل الآن في القبر؟ إنّه على الأقلّ لا يسأل ولا يذهب في عينيه عندما يتكلّم. كانت عيناه بعيدتين مثل نقطتين من الماء. أستاذ الفيزياء يتكلّم دائمًا عن نقطة الماء، ولم أفهم ما يعنيه إلاّ عندما نظرت إلى عيني هذا الرّجل. إنّهما نقطتان من الماء مستديرتان ولا عمق فيهما. كان يدخل في عينيه عندما يتكلّم ويبقى هناك يتحوّل إلى نقطتي ماء ويشتم البوليس والدولة. وأنا أقف إلى جانبه ولا أتكلّم. ماذا أقول؟ الآن لا يوجد بوليس، وهاني مات، والحالة ليست أفضل. وهذه المرأة تتدلّى من السّقف. رجلها بيضاء وفخذها أبيض. لا ليس أبيض. إنّه يشبه شيئًا أبيض. وقدمها كبيرة بحجم رجل يقف ملتصقًا بالحائط. أتقدّم إلى الحائط، أضغط جسدي إليه. لكنّ الرّجل يتحرّك ويرتجف. الغرفة بأسرها ترتجف. يدي ترتجف والسّائل الأبيض يسقط على الأرض. أضع كمّيّة من الماء في فمي، لا أبتلعها، أتركها وأترك خدّي منتفخًا من الجهة اليمنى. أقترب من الكرسيّ وأحاول أن أتّكئ. لكنّ الظّلال، الظّلال تتأرجح وكأنّنا داخل مدينة مصنوعة من الكرتون السميك. اللّون غامق والأشياء كانت تبتعد. اليد تسقط ولكنّني أحاول. فعلاً أحاول. أقف أمام المرأة التي تشبه حبلاً سميكًا. أمدّ يدي باتّجاه الحبل. أسمع صراخًا. أتراجع قليلاً إلى الوراء. أسند ظهري إلى الحائط. الحائط يهتزّ. أشعر كأنّ الحائط سوف يسقط على وجهي أو أنّ الحائط لا يستطيع أن يقف. أرى الخزانة وأبتسم. لا تستطيع أن لا تبتسم حين ترى الخزانة. عمّتي كانت تحبّ

الخزانة. وعندما ماتت، كان أوّل شيء فعلته هو الذهاب إلى الخزانة والبكاء أمام بابها. ماذا تستطيع امرأة أن تفعل. امرأة قضت عمرها في منزل شقيقها تكنس وتغسل الأطباق وتشعر أنّها غريبة. كانت تبكي. تخبرني عن العريس الذي رفضه والدي لأنّه مجنون ولا يحبّها. أنا أعرف الحقيقة، تقول عمّتي. كان سكِّيرًا، يخون زوجته مع القطط ثم يسكر كالبغل. دائمًا كان أبوك يسكر. وعندما زاره العريس كي يطلب يدي كان سكرانًا، فنصحه بعدم الزواج منّي لأنّي قبيحة. وعندما أصرّ الرّجل، شتمه أخي ونصحه بعدم الزواج لأنّ الزواج مصيبة، ثمّ طرده من البيت. وجاءني، أخبرني، اعتذر وصار يبكي. لم أقل شيئًا. عمّتي تبكي، تنظر إلى الخزانة. أفضل شيء هو الخزانة. إنّها لا تشعر بشيء، تضربها، عمّتي تضرب الخزانة بعنف، لكنّها لا تبكي، لأنّها لا تشعر بشيء. عمّتي تبكي. أريد أن أصبح خزانة. أجلس إلى جانبها وأبكي. ثمّ فكّرت أن أصبح خزانة.

المرأة التي تتدلّى من السّقف تنحني، تصبح مثل نساء السّيرك. شعرها يسقط طويلاً. أطول شيء هو شعر المرأة. وأنا عرفت زوجتي منذ سنوات طويلة. منذ مليون سنة. وعندما تزوّجتها قلت لأبي إنّ المرأة الأولى تشبه المرأة الأخيرة. ضحك، ثمّ نظر إلى زوجته، ابتسمت. كانت هذه هي المرّة الأولى التي أشعر فيها أنّ أمّي هي زوجة هذا الرّجل الكريه. يلعبان معًا في الفراش، ثمّ يضربها وهو يضاجعها من أجل المتعة. كنت أعتقد أنّني لا أستطيع أن أنام إلى جانب امرأة في فراش واحد دون أن أضاجعها اللّيل بأسره. كيف يمكن أن

أغفو وامرأة، امرأة كاملة تنام إلى جانبي. لم يكن يغمض جفني عندما كنت أضع صورة امرأة عارية إلى جانبي في السرير. أبقى مستيقظًا أنا والصورة والأشياء الأخرى. ثمّ أنهض من الفراش، أطوي الصورة بعناية وأضعها داخل الكتاب وأنام. ولكن بعد مليون سنة، أصبحت أنام وهي إلى جانبي دون أن أطويها أو أضعها في كتاب. طبعًا أنا لا أعرف. وضحكة أبي ونظرته إلى زوجته لا تزال في أذني. لا أعرف من المرأة إلاّ المرأة الأخيرة التي اسمها زوجتي. والتي تحبّني كما تحبّ قالب الحلوى. أمّا المرأة الأولى والثانية والثالثة، فما تزال موجودة في المجلاّت التي بدأت أشتريها خلسة، أتفرّج عليها أو أقرأها في المكتب. حتّى اكتشفني أحد الزملاء. سرق المجلّة من درجي ودار بها على السكرتيرات. خجلت حتّى احمرّت صلعتي. كنت أشعر أنّ رأسي يتوهّج بالدّم. ومن يومها، أصبحت أخجل من السكرتيرات، وأصبحت نظراتهنّ إليّ وقحة، وضحكاتهنّ وقحة. أمّا الرّجال فكانوا يتهامسون.

كان الكوب يترنّح في يدي وكأنّه يريد أن يسقط. السائل الأبيض له رائحة قويّة، والظلام يتساقط بطيئًا. هكذا يأتي الظلام. تعتقد أنّه يأتي بطيئًا، ثمّ فجأة دون أن تشعر بشيء تسقط في الظلام وتضيء الكهرباء. أمّا في هذه الأيّام السود فلا كهرباء ولا من يضيئون. كلّ شيء يرتجف في هذه المدينة اللّعينة التي اسمها بيروت. الحرّ خانق. وأصوات الطلقات تأتي بعيدة. كيف يستطيعون أن يحاربوا في هذا الحرّ؟ كيف لا ينامون فوق أكياس الرّمل؟ مستحيل. الأصوات تزيد الجوّ حرارة. لا بدّ أنّ غبار القذائف يملأ الفضاء بالغيوم. فهي تمطر

في الصيف. أمس سقط المطر. الجوّ حارّ والمطر يسقط. مثل العجائب. السماء تعرق، قالت زوجتي وهي تعتقد أنّها تخبر نكتة جميلة. لكنّه غضب الله. كيف يستطيعون؟ لا أعرف. وهذه القذائف الجديدة التي تعوي كالذئاب. وأطرف شيء هو قصّة ڤيتنام هذه. يريدون ڤيتنام جديدة، وبعد ذلك الحروب. الحرب تعني ڤيتنام وڤيتنام تحتاج إلى الحرب. وهاني مبسوط. أنا لا أفهم هذا الرّجل. مسكين مات. بكت زوجتي مثل النّساء عندما عرفت أنّه مات. أمّا أنا فلم أبك. لم أستطع أن أبكي على هذا الرّجل. ثمّ أخبروني أنّه مات خطأ. لا، أنا قدّرت ذلك. قالوا إنّه كان يجلب التموين فجاءت القذيفة وقتلته. وهذا خطأ في رأيي. يجب أن لا يجلب التموين. حتّى في الحرب لا نعرف كيف ننظّم الموت. لكنّه أمسك العصا من طرفها. كان يقول: لا تستطيع أن تمسك العصا من الوسط. الذي يمسك العصا من الوسط لا يحارب. إذا أمسكت العصا من الوسط. . . هنا يحمرّ وجهه مثل البندورة، ويذهب في عينيه، وتكتشف أنّ هذا الرّجل يتحوّل إلى نقطتي ماء. . . وهجم عليك العدوّ، كيف تقاتل؟ تصبح العصا ضدّك. تضع العصا في قفاك وتستسلم أو تقتل. ذهب هو وأمسكها من طرفها، لكنّه مات. هو أيضًا مات. كيفما أمسكنا بالعصا فسوف نموت. هذه هي الحكمة التي استنتجتها. ثمّ هناك أشياء لا نستطيع أن نمسكها من طرفها. كيف تضاجع المرأة؟ عليك أن تمسك بها من وسطها، وتمسك جيّدًا، ثمّ تضاجعها. الوسط هو الجنس، والجنس هو الحياة. إذن أين هو الخطأ وأين هو الصواب وأين هي الحياة؟

كانت الأصوات تعلو، وهناك حركة القدمين والأحذية الخشبيّة التي أصبحت موضة هذا العصر. الأحذية الخشبيّة تليق بالنساء. لكنّ الناس تنسى. تنسى كلّ شيء ولا تفكّر إلاّ في الرّغيف. وأنا كذلك أنسى، لكنّ الرّغيف لا ينسى شيئًا. الخبز على الطرقات. لا أعلم لماذا حلمت ولماذا فعلت هذا. استيقظت في الصباح، وأنا أبتسم. كنّا ننام في ملجأ مكتظّ بالنّاس والرّوائح. وأصوات النّساء تئزّ طوال اللّيل كأنّه حكم علينا بالاستماع دون أن نستطيع الاعتراض. كانت الأرغفة بيضاء مثل معاطف الممرّضات، ملقاة بالأكوام على الأرصفة. أنا وابنتي نقف وسط آلاف الناس الذين جاؤوا من كلّ مكان وبدأوا يأكلون الخبز، ويضعونه في أكياس صغيرة ثمّ يذهبون. ابنتي تضحك، تشير إلى الرّغيف الأبيض. لكنّ الكثافة البشريّة تمنعني من التقدّم للوصول إلى الرّصيف حيث كلّ خبز العالم. وأبو عصام يصيح بأعلى صوته، والخبز يتحوّل إلى رغوة بيضاء حول شفتيه. يحاول منع الجميع من التقدم. ابنتي الصغيرة تنهمر دموعها بيضاء بلون الأرغفة. وأنا أقف لا أستطيع التقدّم. عندما فتحت عينيّ وسط الملجأ، كانت ابنتي في حضن أمّها، وأبو عصام يصرخ ويلعن زوجته، ثمّ ينهض. أذهب وإيّاه إلى الفرن، حيث آلاف الناس. لكنّ الخبز الأسود كان موضوعًا داخل أكياس النايلون، والناس تصرخ، وأصوات الانفجارات البعيدة والطلقات القريبة. كلّ الأشياء التي حدثت ولم تحدث، تتجمّع في وجه الفرّان الذي يمسك اللّيرات، يجعلكها ثمّ يضعها في الدرج وهو يشتم الكهرباء والماء واستحالة العمل. عندما أعود إلى البيت، تكون الشمس قد

انتصفت في السماء، ورائحة الطبيخ تملأ الغرف، وزوجتي تضرب الأولاد والخبز لا يكفي وممنوع قراءة الصحف.

ـ تنفق نقودك على الصحف، ثمّ تقضي وقتك في الاستماع إلى الراديو. إذا كنت تستمع إلى الراديو فلماذا الصحف؟

النساء لا تفهم في السياسة. لا يمكن أن تقنع المرأة بأنّ ما يجري مهمّ وعليه يتوقّف مصيرنا.

ـ لكنّك تجلس في البيت طوال النهار.

لكنّها لا تفهم. الحقيقة أنّني لم أستطع. في العمل كنت أشعر أنّني جزء من شيء، من المؤسّسة. أمّا الآن، فحتّى زوجتي لم أعد أشعر أنّني جزء منها. فقط الأصوات. الأذن هي الحاسّة الوحيدة التي لها معنى. أمّا باقي الأشياء فلا معنى لها. هاني لم يكن موافقًا. لا بدّ وأنّ الله موجود. أنا مؤمن، لكنّي لا أستطيع. حتّى الإيمان أصبح أضحوكة عند زوجتي. توقّف عن السكر أوّلاً ثمّ أستمع إليك. إنّها لا تقدّر ظروفي. منذ أن توقّفت عن الذهاب إلى العمل، وأنا مضطهد. الجريدة التي أقرؤها تضطهدني. الحروف السود تسيل على وجهي وثيابي.

لا تضع الجريدة أمام الأولاد، تصرخ زوجتي. لماذا لا ترمي الصحف؟ تكدّسها في البيت. الأولاد يلعبون بها ويمتلئ البيت برائحة الحبر.

حتّى قراءة الجريدة أصبحت ممنوعة. إنّها تفعل ما تشاء. تثرثر طول النهار وتبكي طول اللّيل وتخاف. هذه المرأة

العصريّة التي اعتقدت عندما تزوّجتها أنّني تزوّجت القرن العشرين تصبح أسوأ من أمّي. وأنا أنحني أمامها كالتيس الذي قصّ قرناه. وأبي يضحك قبل أن يموت، وأنا أضحك عندما يموت. العادات غير مفهومة. يموت الرّجل، يضعونه على السّرير وتجتمع النساء حوله. يرشّون الكولونيا على جثّته ويبدأون بالندب والعويل. وأبي يضحك ويهمس في أذني. ولو، ينتظرن الرّجل حتّى يموت ثمّ يصنعن هذه الحفلة الجنسيّة أمام جثّته. أليس الأفضل أن يجتمعن حوله وهو حيّ. وعندما مات أبي لم أستطع أن أخفي ضحكتي. كان وسط الحفلة الجنسيّة، بربطة عنق قديمة لا أعلم من أين جلبتها أمّي، والكولونيا فوقه وتحته، والنّساء يولولن. ارتفع العويل عندما دخلت. فانفجرت ضاحكًا. توقّفت النساء عن البكاء ونظرن إلى بعضهنّ. أمّا أمّي فإنّها بدأت ترتجف من الحياء وتردّد كلمات غير مفهومة. ثمّ عاد العويل وأبي لا يتكلّم ولا يتحرّك.

هذا السّقف الذي تتدلّى منه المرأة يقترب من رأسي. الأشياء بنفسجيّة والشمعة بيضاء. لكنّ الشمعة لها رائحة. السّقف يقترب. والسائل الأبيض ينحدر من يدي إلى الأرض، والرّائحة تنتشر. ليس للملح رائحة. كان الجوّ خانقًا. قالوا إنّهم يستطيعون. طبعًا لم أصدّق. أنا لا أؤمن بالخرافات والشعوذة. لكنّها كانت ترقص. الطاولة الصغيرة تطير في الفضاء وترقص. أغلقوا النوافذ والأبواب. أجسادنا تعرق كأنّنا في حمّام تركيّ. تكلّموا. نظرت فرأيت الطاولة تطير في الفضاء. كانت بحجم اليد، صغيرة لكنّها تطير. خفت كثيرًا. قالوا إنّهم سيجرّبون الكوب. تأتي روح الميت وتجلس داخل

الكوب، وتتحرّك بين الأحرف وتقول كلّ شيء. قلت لزوجتي عندما عدت إلى البيت إنّني أخاف. أدهشني حماسها المفاجئ ورغبتها في معرفة التفاصيل. لم أستطع قلت لها. ضحكت منّي. لم أخبرها أنّني رفضت محاولاتهم لاستحضار أحد أصدقائي. هاني كان أمامي. رأيته بجسده الممتلئ وقامته المديدة. لكنّي خفت منه. جئت إلى البيت راكضًا. كانت الطرقات مليئة بالظلام والخوف، وكان فمي مالحًا. هذه مدينة يتعايش فيها الموتى والأحياء بشكل عجيب. صار الموتى أكثر عددًا من الأحياء. نمت طوال اللّيل في المنزل. قلت لزوجتي إنّني أشعر بالاختناق، لذلك لن أنزل إلى الملجأ. رجوتها أن تبقى إلى جانبي.

ـ والأولاد ماذا أفعل بهم؟ ماذا لو جاءت القذيفة في البيت؟

المهمّ أنّها تركتني ونزلت هي والأولاد إلى الملجأ. وبقيت وحيدًا أنا وأصوات القذائف والظلام. قلت أنام في سريري لا يهمّ. لكنّ القذائف كانت تصفر كأنّها تخرج من أذني. نهضت وجلست في الممرّ. قلت أنام جالسًا. وأصبح جسدي ينحني مع القذائف القادمة والذاهبة. قضيت ليلة خاصّة. تمنّيت أن أكون طفلاً صغيرًا. حتّى التمنّيات أصبحت مضحكة. نمت جالسًا، ثمّ استيقظت في الصباح. كان الدويّ هائلاً. لا أعرف ماذا جرى بالضبط. لكنّ القذيفة سقطت بالقرب من البيت.

وضعت الكوب على الطاولة. أمسكت الشمعة البيضاء وحاولت أن أضعها على الطاولة. لكنّها سقطت من يدي.

انحنيت، كان البلاط متّسخًا وضوء الشمعة ينحني إلى اليمين. أمسكتها مرّة ثانية وتقدّمت من المرأة المعلّقة في السقف. إنّها تصرخ. نظرت جيّدًا، كان وجه زوجتي أبيض وهي تحاول أن تمسك بشيء ما. ثمّ فجأة سمعت دويًّا هائلاً. وامتلأت الأرض بالزجاج. كان الزجاج صغيرًا ويلتمع تحت ضوء الشمعة، ورائحتي تنتشر في المنزل. سمعت صراخ زوجتي. ثمّ هبطت من السقف وبدأت تبكي. انكسر القنديل، قالت. منذ نصف ساعة وأنا معلّقة أبحث عنه، وأنت كالتّيس لا تتقدّم لمساعدتي. الناس تموت وأنت تسكر. لا تفعل شيئًا. ثمّ ينكسر القنديل الوحيد الذي نملكه، فتبقى واقفًا. أمسكت الكوب ورمته على الأرض. ارتفع العرق أبيض ورائحته القويّة انتشرت بين الزجاج المتناثر. كان الزجاج على ثيابي. اقتربت زوجتي وطردتني من المطبخ. اِذهب بعيدًا. ذهبت إلى الشرفة وجلست وحيدًا. في اللّيل، في الملجأ. وسط تنفّس الجميع، كانت زوجتي إلى جانبي تتنفّس بانتظام. ثمّ بدأت تشهق. ثمّ اقتربت منّي وهي تبكي، ثمّ اقتربت منها. وعندما انتهينا قالت لي إنّ رائحتي عرق، وهي لا تحبّ هذه الرّائحة.

ـ ٢ ـ

كلّ شيء يبدأ في الثامنة صباحًا. يدخل الموظّفون بهدوء، يلقون التحيّة. يفتح أحدهم الصحيفة فتقترب الرّؤوس، تنحني أو تبتعد ثمّ يرتفع الصخب. الناس بالعشرات، يحملون الأوراق الطبّيّة. يحاول كامل أبو مهدي أن يضبط الصفوف.

بالنظام يا شباب، كلّ شيء يجري بالنظام. لكن لا أحد يحترم النظام. تمتلئ الغرف برائحة الناس القادمين من كلّ مكان. وكامل أبو مهدي يحاول جاهدًا أن ينهي المعاملات بسرعة. يجلس خلف ما يشبه النافذة الزجاجيّة بصلعته التي تلتمع بالعرق، وبيده ورقة كلينكس أصبحت مليئة بالبقع، يمرّرها فوق جبهته ورأسه، ويكشّ بها الذباب الذي يطير في الغرفة. يضع ورقة الكلينكس على الطاولة، يستلم الأوراق الطبّيّة، يسجّلها في دفتر كبير أمامه. إنّه حذر جدًّا. يتأكّد من توقيع الطبيب، يجب أن لا تمرّ ورقة مزوّرة على ذقن كامل أبو مهدي. لقد أصبح يعرف ألاعيب هؤلاء. يأتون، يصرخون، يدفشون بعضهم، ثمّ حين يصلون أمام نافذته الزجاجيّة تأخذ وجوههم مسحة الحزن والمسكنة. إنّهم مرضى أو كانوا مرضى. ومن أجل إثبات ذلك، تتهدّل وجوههم وتنظر الأعين إلى الأرض. بشرفي يا سيّد كامل. لكنّ السيّد كامل لا تهمّه المظاهر، يتأكّد بنفسه من كلّ شيء. لذلك يتأخّر الطابور أمام نافذته الزجاجيّة. جميع موظّفي الضمان الصحّيّ يجدون متّسعًا من الوقت من أجل الثرثرة، إلاّ هذا الأصلع. فهو رجل مبدئيّ، هكذا يقولون. لكنّ للأصلع رأيه الخاصّ. فهو لا يستطيع، هكذا يقول لزوجته عندما يعود في المساء إلى البيت وقد اعتصره التعب. طبعًا هو لا يخبر زوجته أنّه يجد متّسعًا من الوقت للثرثرة، ولكن بعد الظهر. نظام العمل في هذه المؤسّسة خاصّ جدًّا. إنّها وحدها من بين مؤسّسات الدولة تعمل بعد الظهر. قبل الظهر هناك الناس والرائحة، وبعد الظهر، يأتي بعض الناس، لكنّ الجزء الأساسيّ من الوقت هو من أجل الثرثرة

والقراءة. كامل أبو مهدي لا يحبّ الثرثرة. لا يشعر بالانسجام. أغلب الموظّفين لا يزالون طلاّبًا في الجامعة، أمّا هو فيكره الجامعة. عندما يتكلّم الموظّفون عن الجامعة، يضع صلعته بين يديه وتبرز أظافره غير النظيفة وينظر إلى الطاولة. وعندما تلحّ عليه وفاء، وهي موظّفة جميلة حاول كامل أن ينفّذ قراره بخيانة زوجته معها لكنّها رفضته بطريقة عجيبة. وافقت. قالت نلتقي في أحد مقاهي شارع الحمراء. ذهب كامل، بعد أن يئس من إمكانيّة إقناع زوجته بضرورة زيارة المدير بعد ظهر الأحد. وانتظر ثلاث ساعات في المقهى وهو ينزف عرق الخوف من أن يراه أحد. ثمّ فجأة يطلع له هاني مع بقيّة الموظّفين. وهم يضحكون. من يومها قرّر كامل أنّ خيانة الزوجة هي مسألة أكثر تعقيدًا من الجامعة. ينظر إلى وفاء التي تكلّمه بثقة كبيرة بالنفس. غلط يا كامل. يجب أن تنهي إجازة الجغرافيا. التعليم أفضل من هذا القبر. ينظر إليها ولا يعلم بماذا يجيب. أمّا هي فتخفي ابتسامتها التي توزّعها على بقيّة الموظّفين بسخاء.

كنّا نجلس حول كؤوس العرق وكامل يشرب معنا.

ـ لماذا لا تشرب معنا دائمًا يا سيّد كامل؟

ـ يا أخي لا أعلم كيف تنجحون. السبب معروف طبعًا معروف. الزواج. امرأة وأولاد ثمّ تريدونني أن أنجح. انتهت الدراسة بالنّسبة لي. يجب أن أنظّم أموري على أساس أنّني موظّف. الحقيقة، تريدون الحقيقة. يبتلع الكأس دفعة واحدة. يا أخي أنا تزوّجت لأنّي لا أنجح. الزواج كان الوسيلة

الوحيدة. لا أعرف كيف حصل. طبعًا أحببتها بالطريقة الحديثة.

ـ ولكن لماذا لا نسكر معًا؟

هذا الهاني يسأل كثيرًا. يريد أن يعرف تاريخ حياتي. يا أخي أنا لا أحبّ السهر، أحبّ البقاء في العائلة. طبعًا أشتم برامج التلفزيون كما يفعل جميع الناس. ولكن عندما يبدأ لا أتزحزح عن الكرسيّ. أنا في طرف وزوجتي في طرف آخر. هي تكثر من التعليقات، خاصّة عندما يعرض الفيلم العربيّ الطويل. إنّها تحبّ عبد الحليم حافظ، أنا محايد.

جميع الموظّفين يتغدّون في المطعم المقابل للمكتب ما عدا السيّد كامل. يخرج في الواحدة ظهرًا راكضًا. ينظر إلى اليمين وإلى اليسار خائفًا قبل أن يقطع الشارع المقابل ويصل إلى الأوتوبيس، حيث يتسلّقه. هو يفضّل الجلوس. إذا وجد مقعدًا فارغًا يبحث عن مقعد آخر إلى جانب امرأة. وحين يفشل في العثور عليه يكتفي بالجلوس العادي. أمّا حين يجده، فإنّه يقضي الطريق بطوله في التنحنح والنظر في ساعته والشكّ فيها، ثمّ يحسم أمره. ولا يحدث هذا عادة إلاّ قبل دقائق من الوصول إلى البيت. يسأل السيّدة عن الساعة، وهي غالبًا، تشيح بوجهها عنه ولا تجيب. لكنّه يكتفي برائحة العطور التي تفوح منها. ثمّ يعود في الثالثة إلى المكتب راكضًا كما ذهب.

جميع الأمور تسير بانتظام. حتّى المفاجآت كانت منظّمة قبل هذه الحرب. حتّى أحلامي كانت مفهومة. أمّا الآن فكلّ شيء تغيّر. حتّى صورة الفوتبول. من ينسى مرديك؟ مرديك الذي

يضع الكرة بين قدميه ويلاعبها، واللاّعبون يتفرّجون عليه لأنّهم لا يستطيعون. مرديك يشتعل ويشعل النّاس. لم ننس مرديك إلاّ حين جاء التلفزيون. يومها اكتشف جميع النّاس أنّ مرديك هو لاعب عادي. وأنا الوحيد على هذه الكرة الأرضيّة الذي بقي مخلصًا لمرديك. كانت زوجتي قادمة بفنجان القهوة الصباحيّ. أيقظتني كالعادة. ونهضت كالعادة. وكالعادة جلست على الطاولة وأكلت ثمّ شربت القهوة.

ما هذا الكرش، قالت زوجتي. لا يا كامل يجب أن. . .

لم أدعها تكمل. كنت في مكان آخر. طبعًا لم أخبرها لماذا نهضت. لم أخبرها أنّ الملعب كان أخضر، مثل ملعب الجامعة الأميركيّة. العشب الأخضر يصل إلى الركبتين، والرذاذ يطير فيسقط على وجهي ووجه مرديك. كنّا وجهًا لوجه. هو يلبس القميص الأخضر وأنا ألبس القميص الأبيض، وحولنا اللاّعبون، والماء يطير فوقنا وبين أقدامنا. أمسك مرديك الطابة بين قدميه ولاعبها. كنت أركض، ومرديك الملك في مكانه والطابة بين قدميه، يدور بها وتدور. وأنا أركض حولها. ارتفع لهاثي وهو جامد في مكانه كأنّه لا يلعب. ثمّ سقطت على الأرض من الإعياء. جاء اللاّعبون، صفّر الحكم، أعطوني ليمونة قضمتها وأنا مستلق على العشب الأخضر وحولي اللاّعبون، ومرديك لا يتزحزح من مكانه، والطابة تكبر حتّى أصبحت بحجم السيّارة. وقفت. عدنا إلى المواجهة. صرخت، ارتفع التصفيق. وكانت زوجتي إلى جانبي وفي يدها كوب الحليب. ثمّ انهمر المطر.

لم يكن أحد في الضمان الصحّيّ يعلم شيئًا عن كامل أبو مهدي. لم يزره أحد سوى هاني. لذلك كان هاني هو المرجع الوحيد. الجميع يشكون من بخل هذا الرّجل ومن استدارة كرشه. لا يشرب القهوة، لا يدخّن، لا يسكر إلاً نادرًا. إنّه بخيل وقذر. وهاني يبتسم. طبعًا بخيل. لكنّه مجتهد. يضحك فنضحك.

يدخل كامل أبو مهدي فرحًا. يجلس وراء الزجاج. يبتسم للجميع، لا يدقّق في الأوراق. يضحك يغمز وفاء. لا أحد يفهم. حتّى هاني لم يعرف السبب حين سأله الموظّفون. في الواحدة، وبعد أن تذهب رائحة النّاس، كامل لا يركض باتّجاه الأوتوبيس. يتمهّل. أنا ذاهب إلى البيت. يقف. ثمّ يذهب باتّجاه صديقه الوحيد. يتأبّط ذراعه ويخرجان معًا. والجميع ينتظرون.

كانت بيضاء ومستعملة وتشبه الصرصار. اسمها ڤولسڤاكن. لكنّها سيّارة. وزوجتي لها رأي محدّد. تنظر إلى السيّارة من الشرفة في الطابق الرّابع، أنظر، إنّها طويلة، وليست بالشكل الذي تصفه. فعلاً، إنّها مستطيلة من الطابق الرّابع. لكنّها تشبه العلبة. هكذا قال الجميع. وأنا أعلم أنّهم يحسدونني. وأنا أحسد زوجتي. لقد عادت شابّة. أصبحت تشبه الفتيات. لكنّي لا أعلم من أين تملك هذه القدرة. كيف جمعت النقود من بقايا مرتّبي الحقير، وكيف فاوضت البائع، وكيف اشترت السيّارة، وكيف أقنعتني بأنّ الديون لا تهمّ. لقد غفرت لها كلّ شيء. فناجين القهوة التي لم أشربها، والمطاعم التي لم أذهب إليها،

والأصدقاء الذين لم أصادقهم، وكلّ شيء. لقد أصبحت رجلاً حقيقيًا. بيروت مثل القحبة، لا تستطيع التعامل مع القحبة إلاَّ وجيوبك مليئة. ولا تستطيع أن تمشي في بيروت إلاَّ راكبًا. وإلاَّ ركبوك وأذلّوك. أنا رجل مسؤول وأملك سيّارة. لذلك يجب أن أتعامل مع السيّارة بمسؤوليّة.

السيّارة في شوارع المدينة. المحرّك في الخلف، والمقود سهل، وكلّ شيء حسن. تنظر زوجتي إلى السيّارة بمحبّة وفرح. وأنا أنظر إلى زوجتي بفرح. لقد أصبح لهذه المرأة طعم خاصّ. وأنا أصبحت موظّفًا ناجحًا. لم أعد أخاف. وأصبح الجميع يريدون صداقتي. الجميع يحبّون السيّارة. لكنّ زوجتي تضع القوانين. السيّارة للعمل. فقط نهار الأحد نذهب إلى الروشة، حيث تتهادى السيّارة ببطء. السيّارة مثل الإنسان تموت. يجب أن لا تموت هذه السيّارة.

أهمّ شيء هو انعكاس أضواء السيّارة على الناس. أضواء السيّارة شيء مذهل. والناس تحتها تتلألأ كأنّك تضعهم داخل بركة ماء. لكنّ النيون. النيون المزروع في الشوارع يقتل المتعة. وزوجتي لا تحبّ القرية، حيث الطرقات المظلمة، وحيث تكون السيّارة سيّارة. لا أعلم لماذا بدأت أعتقد أنّ زوجتي تشبه السيّارة. حين أخبرتها بذلك ارتجف وجهها من الحزن. لكنّ السيّارة أجمل. صحيح أنّها تهرم لكنّها تهرم من الداخل. أمّا الإنسان فيفرط من الداخل والخارج. من يومها توقّفت زوجتي عن الوعظ. القدرة على منع المرأة من الوعظ تعادل الصعود إلى القمر. لكنّ السيّارة مسألة خاصّة. أصبحت

أذهب متى أشاء. واكتشفت حقيقة هؤلاء الناس. كنت خائفًا منهم. موظّف جديد، جرى نقلي من وزارة الأشغال إلى هنا، بعد خلاف مع المدير كاد أن يدفعني إلى الجنون. المدير شيء خيالي. إنّه تافه بالتحديد. المدير هو أكثر تفاهة من أصغر موظّف تافه. إنّه يشبه الذبابة. تكشّها لكنّها تحطّ على رقبتك ثمّ تتركها من السأم. جئت إلى هنا وقرّرت أن لا أتدخّل في شيء. أشتغل ولا أرفع رأسي. لكنّي اكتشفت أنّ المشكلة ليست المدير. إنّها الموظّفون. عصابة. عصابة كاملة متكاملة. يريدون ضحيّة. كنت أنا الضحيّة. ولأوّل مرّة أصبت بخوف حقيقيّ وأصبحت أشبه الذبابة وأكره صلعتي. وانكشفوا. كلّهم جرذان. أين هم الآن، إنّهم مثلي. أنا على الأقلّ خاطرت بحياتي دون أن أذهب بعيدًا. لكنّهم مثلي وأنا مثلهم والمجد للسيّارة. كنت أعلم أنّهم لا يحتاجون للركوب فقط، بل يريدون شيئًا آخر. يريدون أن يضحكوا منّي ولكن علنًا هذه المرّة. ضحكوا كثيرًا، لكن عندما بدأت أضحك فرطت اللّعبة وفرطت العائلة. الدنيا بالغة التعقيد، كنت أقول لها. لكنّها لا تفهم لماذا أسهر وأعود ورائحتي عرق. أنا لم أدخل العرق إلى البيت إلاّ في هذه الحرب. يا أخي ماذا نفعل. نسكر ونقرأ الصحف. لم ألتق أحدًا خلال هذه الحرب. حتّى هاني كنت أعتقد أنّه مثل الجميع. لكنّه مات. الموت يغيّر. لا تفهم الشخص إلاّ بعد أن يموت. والآخرون يا أخي لم يموتوا. وأنا لم أمت. إذن نحن جرذان.

كانت السيّارة تتهادى. أحمد يزعق في المقعد الخلفيّ، والآخرون، ونريد أن نتعشّى على الروشة. لا أحمل القود،

لكنّهم يحملون النقود. والمطر الخريفيّ يبلّل الشوارع. الأرض مثل الصابون. انتبه، انتبهت. لكنّ الأرض كانت مثل صابونة كبيرة. السيّارة تنزلق ببطء. السيّارة تشبه الصابونة. صغيرة مثل صابونة الحمّام ولها رائحة. ضحكوا ولم أنتبه. ثمّ بدأت الأشياء تدور. لم أفهم لماذا تدور الأشياء، إلاَّ حين رأيت الدم على وجهي. الجميع يصرخون بسيطة. أرى الصابون في كلّ مكان. لكنّ الصابون كان أبيض ويغطّي كلّ شيء. مثل الأفلام، حين تكون البطلة الجميلة داخل البانيو والصابون يغطّي كلّ شيء، ونحن نعتقد أنّنا نتفرّج على كلّ شيء. الدم ينزلق على يدي، ويدي تأخذ شكل الصابونة المتعدّدة الروائح. فعلاً كانت بسيطة، هكذا قلنا ونحن نجلس في المطعم ونشرب العرق ونضحك. كنت أشعر بوجع في أسناني. حاولت أن أتذكّر ما حصل بالضبط. انزلقت السيّارة. فقدت سيطرتك على المقود، ثمّ سقط وجهك عليه فيما كانت السيّارة تدور. لا شيء. أسناني تؤلمني قلت لهم. ضع العرق على الأسنان إنّه أفضل دواء. أكلنا وشربنا. ثمّ وقف أحمد عيّاش. أمسك بطحة العرق، شربها دون ماء. وبدأ. الأرض في الجنوب، صرخ الجميع، وكانوا يضحكون. جلس أحمد عيّاش وروى القصّة. عندما يسكر يرويها دائمًا همس في أذني. الجميع يقاطعونه ويضحكون. العكا. . . أوراق التبغ تحت الشمس. أبي مات، وكان يخبرني عن أوراق التبغ. ثمّ قالوا له إنّ الأرض ليست له. هو متأكّد أنّه ورثها عن أبيه. أمّا كيف ولماذا. الطابو قالوا له. الطابو يعني أنّ الأرض مسجّلة باسم رجل آخر يملك كلّ أراضي البلد. كاد أبي أن يصاب بالجنون.

عليه أن يعطي نصف الغلّة لرجل لا يعرفه ولم يدعس القرية في حياته. أحنى أحمد عيّاش رأسه وشخر. قلنا أغفى. لكنّه كان يقلّد حركات الرّجل الغريب الذي جاء إلى القرية وضرب والده ثمّ أسكنه السّجن. وحين خرج الوالد من السّجن مات بالسّرطان. يا أخي ما هذه البلادة. شعب بليد تركبه العفاريت والقوانين. لوّح أحمد عيّاش بيديه في الهواء. أخذ بطحة العرق ورماها إلى الأرض. جاء الغرسون وأسمعه كلامًا قاسيًا. أمّي لا تحبّ الرّيف. لم تعد تحبّه. لكنّها تحتقر المارلبورو.

أجمل شيء في المطاعم هو المرحاض. المرحاض أجمل من مائدة الطعام. لا بدّ وأنّ هذا، هو جزء من الحضارة الحديثة. دخلنا المرحاض أنا وأحمد. وقفنا متوازيين أمام مراحيض الرّجال. كان أحمد على وشك التقيّؤ. لكنّه قال إنّه يستطيع أن يضبط نفسه. ثمّ بعد أن انتهينا، أخرج أحمد ربع ليرة من جيبه ووضعها في الصحن. دائمًا في المراحيض الحديثة، هناك صحن وقنّينة كولونيا وامرأة عجوز وكرسيّ. وغالبًا ما تترك العجوز الكرسيّ فارغًا وتذهب. وعلى الزبائن أن يفهموا ويضعوا النقود في الصحن. تلك اللّيلة كانت المرأة هناك. تنظر إلى السقف وتحمل في يدها منديلاً. وضع أحمد الربع ليرة في الصحن، ثمّ أمسكني من كتفي. كان يعتقد أنّه يهمس وأنا كنت متأكدًا أنّه يهمس. لكنّ المرأة العجوز وقفت وقد بدا الرّعب في عينيها. كان وجهها غريبًا. وجه مليء بالتجاعيد والشعر الطويل يتدلّى من ذقنها. لكنّ أحمد مصرّ على أنّها جميلة. وربّما. قلت ربّما. ولكنّها عجوز ولن تقبل.

ـ كلّهنّ يقبلن. أنت لا تفهم شيئًا. أنا خبير في النساء. أنت متزوّج ومعقّد جنسيًا.

ـ نجرّب.

ـ نجرّب.

دنا منها. وقفت المرأة، استدارت حول نفسها. كانت الأرض برتقاليّة والمرأة برتقاليّة. أحمد يتقدّم ببطء وقد انحنى ظهره. والمرأة ترفع يديها كأنّها تمنع شيئًا.

ـ أولاد الكلب. في هذه الآخرة يريدون تحويلي إلى شر. . . بربع ليرة.

كان شعر المرأة طويلاً. ويتهدّل بتجاعيده على كتفيها. كان بالغ التجعيد ويميل إلى الاحمرار. تقدّم أحمد. تقدّمت. تراجعت المرأة. التصق ظهرها بالحائط. ارتفع صوت يشبه الأنين. ثمّ اختفت. لا أعلم كيف اختفت، كأنّ الأرض انشقّت وابتلعتها. اختفت هي وصحن النقود وقنّينة الكولونيا والكرسيّ. شتم أحمد. شتمت. ثمّ عدنا إلى مقاعدنا لنجد أنّ الجميع يريدون الذهاب.

السيّارة تميل. كلّهم يخافون، أنا لا أخاف. السيّارة لا تخيف. أوقفوني. جلسوا على الرّصيف، جلست إلى جانبهم، ثمّ تقيّأوا. حاولت، لم أستطع. وضعت إصبعي في زلعومي. لكنّي لم أستطع. ثمّ ذهبوا. قالوا إنّني سكران وإنّهم يخافون وأفضل شيء هو ركوب التاكسي. طبعًا رفضت. كيف أترك السيّارة. عندما ذهبوا شعرت بخوف حقيقيّ. أنا سكران.

يجب أن لا أقود السيّارة. نزلت وبدأت أدفشها من الباب ويدي تمسك المقود. نصفي خارج السيّارة ونصفي الآخر دخلها. والمقود ينزلق من يدي كأنّه أصبح صابونة. ثمّ لا أعلم كيف وصلت إلى البيت، ولا أعلم ماذا قالت زوجتي، لكنّني أذكر أنّها اطمأنّت إلى وجود السيّارة في الشارع أمام البناية

في شرفة الطابق الرابع، كان كامل أبو مهدي يجلس وحيدًا على كرسيّ الخيزران. وعندما سمع الصوت قفز. حمل قناني العرق الفارغة وركض. المصعد معطّل، بدأ يقفز الدرجات قفزًا. ثمّ سقط. انفجرت القناني إلى شظايا، والدم يسيل من يديه. عاد كامل أبو مهدي، غسل يديه وربطهما ثمّ جلس على الشرفة. وكان الرّجل الكهل قد أصبح أكثر كهولة، ظهره أكثر انحناء، والعربة أمامه شبه محطّمة. والصوت يخفت: حديد للبيع، قناني للبيع. وإلى جانبه فتى صغير فخور بنفسه. يحمل بيديه القناني ويحدث أصواتًا موسيقيّة من ارتطامها ببعضها، والناس تبيع وتشتري.

ـ ٣ ـ

المطر غزير. عدت من العمل منهكًا. أوقفت السيّرة في الشارع تحت الشرفة. لم أجد مكانًا. لكنّني حاولت أن أضع السيّارة في مكانها المعتاد. وأخيرًا نجحت. صعدت إلى المنزل، كنت جائعًا. وكان الأطفال الأربعة يقفزون في البيت ويزعقون. غسلت وجهي، قلت لزوجتي إنّني جائع لكن للأكل طقوسه. يجب أن ينام الأولاد أوّلاً. انتظرت الأولاد.

جلست في الصالون. كان الراديو يرسل أصواتًا قبيحة. أعتقد أنّني أغفيت. ثمّ حين فتحت عينيّ كان أحمد عيّاش وهاني وزهير ينتصبون أمامي بقاماتهم. كنت جائعًا. قالت زوجتي إنّ هناك فاصوليا ورزًّا. شهق أحمد عيّاش كأنّك تدعوه لمضاجعة امرأة. لكنّ الفاصوليا دون عرق لا معنى لها. قفز، وعاد بعد ثانية واحدة وفي يده قنّينة عرق. جلسنا حول المائدة. شربنا بتمهّل. يجب أن لا نسكر، قال السيّد زهير الرّصين كالحذاء. شربنا وتحدّثنا عن العمل. الحديث السخيف نفسه، المدير وغير المدير. (طبعًا لم نتحدّث عن النّساء احترامًا لوجود زوجتي في المنزل) ثمّ بدأوا يتحدّثون عن أشياء تذكّرني بالجامعة، والشيخ الجليل رحمه الله، يضع عمامته جانبًا، ويحدّثنا عن عظمة عمر بن الخطّاب.

كلّ شيء يتغيّر. نحن أمّة بلا حضارة. وذهب أحمد عيّاش في غيبوبته الدينيّة. أصبح الحديث لزجًا مثل حبّات الفاصوليا تحت أسناننا. الحبّة لا تختلط بالحبّة إلاّ تحت الأسنان. واللّون الأحمر يلوّن الشفاه وأطراف كؤوس العرق. الصحون أمامنا. إلى جانب الصحن تجلس الشوكة التي لا يستعملها أحد. والأيدي تمتدّ إلى الأرغفة. تمزج الحبّة البيضاء التي تسبح في اللّون الأحمر بالأرزّ الأبيض، ثمّ تضعها في الفم بعد أن تمزجها بقليل من العرق. كلّ شيء في هذا الحديث أصبح مكرّرًا مثل الطبيخ. السيّد زهير يتنحنح، يريد أن يتكلّم.

ــ كأسكم.

نشرب كأسنا.

كلّ شيء تغيّر، يقول السيّد زهير.

كلّ شيء تغيّر، نجيبه.

ـ لا. صحيح. لكن هناك شيء واحد لم يتغيّر ولم يتبدّل. إنّه اليخنة. اليخنة هي خلاصة الحضارة. الأتراك شعب متحضّر لا لغة ولا شيء. لكنّهم سيطروا علينا بالطبيخ. الكوسى المحشي أكلة لذيذة. طبعًا لذيذة. لكنّها تحتاج إلى رأس تركيّ كي يصنعها.

حضارتنا حيّة. حضارتنا لا تموت.

شربنا كأس حضارتنا التي لا تموت. ثمّ انتهى الأكل وانتهى الحديث وبدأنا نتثاءب.

المطر يسقط غزيرًا. طبعًا قالوا لكامل لا لزوم ركامل أصرّ. نزلوا معًا. أوصلهم إلى منازلهم. وعاد وحيدًا داخل سيّارته. المطر يتساقط وهو يسير ببطء. يشعر بقليل من البرد. لكنّ قيادة السيّارة متعة. وهو يحبّ التمتّع.

عندما عدت إلى المنزل وقعت في ورطة. أحدهم احتلّ مكان سيّارتي... فاضطررت إلى إيقاف سيّارتي بعيدًا عن المنزل. ركضت باتّجاه المنزل والمطر يبلّلني، دخلت، كانت زوجتي في الفراش. خلعت ثيابي، لبست بيجامتي واندسست إلى جانبها. كنت بردانًا. وهذا الشوفاج لا يعمل جيّدًا. جميع أصحاب البنايات أبخل من الكلاب. يمتصّون دماءنا باسم البنايات الحديثة، ثمّ يوقفون التدفئة قبل أن تسخن الأنابيب. أنا متأكّد أنّها تصطنع النوم. مددت يدي إليها. كان جسدها

ساخنًا. اقتربت منها، رائحتها تفوح. لم تكن زوجتي، إنّها امرأة. العرق يستطيع أن يفعل كلّ شيء. قبّلتها وانزلقت على جسدها، كأنّي شابّ يرى امرأة لأوّل مرّة في حياته. وكانت هي تقترب وتبتعد وتضمّني. انغرست فيها. أجمل شيء في العالم هي المرأة التي تضحك وأنت تضاجعها. كنت صلبًا ومنحنيًا، وهي تتمايل بين يديّ مغمضة.

لا تريد أولادًا، همست ضاحكة.

ـ أنت أجمل من الأولاد.

أحنت رأسها. أنت تهزأ منّي. لم أكن أهزأ منها. كنت أضعها بين ذراعيّ وأتمايل. والأطفال يولدون ويبكون. الأوساخ على وجوههم والطين في أرجلهم. كانت جميلة.

لا أعلم كيف أغفيت. لكنّها أيقظتني. أنا خائفة، قالت. هذه هي لعبتها القديمة. المرأة امرأة. دائمًا عندما أنام معها وأغفو توقظني، لأنّها تريد المزيد. ودائمًا أخضع لرغبتها. أمّا اليوم فلا. أنا تعبان وشربت كثيرًا ولا يمكن. تظاهرت بالنوم. أدرت لها ظهري وشخرت شخرتي التقليديّة. لكنّها أصرّت. أحسست بيدها ترتجف على ظهري.

ـ أنا خائفة.

نهضت اصطنعت الذهول مثل أيّ رجل ينهض من النوم.

ـ الأصوات، ألا تسمع الأصوات.

ـ إنّه صوت المطر. أريد أن أنام. مفهوم.

نهضت من الفراش. تبعتني. لا بدّ وأنّ نافذة الصالون قد انفتحت. كانت النافذة مفتوحة والمطر على السجّاد. أغلقت النافذة. رفعت زوجتي السجّادة ومسحت الصالون. أحسست أنّها تغريني. أنّها تمسح بطريقة عجيبة. لا. إنّه قميص النوم الشفّاف. ذهبنا إلى الفراش. أريد أن أنام، قلت لها. أمسكت يدي. أشعلت سيكارة. أغفت وكانت السيّارة تلتمع في الغرفة.

بكيت. الجثّة أمامي، الناس حول الجثّة، والجثّة أمامي وحدي. وقف كامل أبو مهدي مذهولاً. صلعته ترتجف ويده تحاول أن تمسح شيئًا عن جبينه. لا أعلم من أين جاءت النساء. النساء على الأرصفة والمناديل في أيديهنّ. ويضحكن.

قلت لزوجتي إنّ السيّارة.

قلت للمرأة الواقفة أمامي إنّ السيّارة. لكنّها تشير إلى طفلة تركض في الشارع وتضحك.

قلت لها إنّني.

قالت إنّ القذائف.

وقف كامل أبو مهدي وحيدًا. كانت وحيدة أمامي. الشظايا الصغيرة تملأ الشارع. والزجاج يملأ الشارع. والسيّارات تملأ الشارع. لكنّها ماتت. تقدّم منها. الدولاب الأماميّ ينفجر. المطّاط يشبه العلكة. المطّاط الأسود الذي يشبه أحذية الجنود يملأ الشارع. قلت لهم يجب أن نغيّر مكان السيّارة. وكان

المطّاط الأسود ينتشر. أمسكت العجلات. ركع كامل أبو مهدي. الجميع ينظرون. أمسك المطّاط حاول أن يحرّكه. وقف. مسح وجهه بيديه. الوجه أسود. كان يعلم أنّه يجب أن لا يبكي. لا يمكن قال لزوجته. لكنّ الدموع سقطت. لا تشبه الدموع شيئًا. جلس على الرّصيف، وضع رأسه بين يديه، وكان المطر يتساقط.

قالوا له، عيب يا أستاذ كامل.

قال لهم، عيب لكنّها ماتت.

قالوا له، إنّ القذيفة.

قال، بسيطة.

وقف. الزجاج في شفتيه. المقود ينكسر إلى نصفين، ذهب إلى المحرّك، الحديد يأكل الحديد. أصبحت تشبه الصور. أمسكها. كان جلدها ناشفًا، والبثور تنتشر على يديه. أمسك بها، قال لها. لم تجاوب. قال لزوجته، لم تجاوب الزوجة.

قالت الزوجة إنّ الحرب.

قلت لها الحرب.

لكنّها الحرب. السمك أكثر جمالاً. والقذيفة لم تسقط إلاّ على رأسي.

تقدّم سمير، البندقيّة بيده، بسيطة، قال سمير.

بسيطة، قال السيّد كامل. كلّ شيء بسيطة.

الموت بسيطة. قالت الزوجة.

كانوا يضحكون. أمّ جميل تقف وهي تحمل طفلتها الجديدة. بسيطة يا جار. الحمد لله على السلامة. لم يصب أحد. المال يذهب ويأتي.

لكنّه يذهب. منذ أن تعرّفت على المال وهو يذهب. لم يأت مرّة واحدة. فقط يذهب.

أمّ جميل تضحك علينا. زوجها يملك سيّارة. لكن أنت حمار، قالت زوجتي. لماذا أوقفت السيّارة هناك؟

قلت لزوجتي إنّني حمار. لكنّ القذيفة، أرادت ذلك. قلت لها إنّ السيّارة ماتت. هذه المرأة تكرهني. إنّها تحتقرني. أنا متأكّد.

ـ لماذا أوقفت السيّارة هناك؟

ـ أوقفتها في مكانها.

ـ لكنّ القصف.

جلست على الكرسيّ وحيدًا. أمسكت الجريدة وحاولت أن أقرأ. زوجتي تقف أمامي وتبكي. لم أقل لها شيئًا. المدينة تهتزّ. حتّى الشارع لم يعد ممكنًا. السيّارات الصغيرة تقف خلف بعضها في صفّ طويل كأنّها تنتظر الإعدام.

قالوا لكامل لا يجوز. الرّائحة. رائحة المطّاط والمشهد الكريه. لم يقتنع. لا يمكن. سوف أحاول إصلاحها. قال لزوجته إنّ شركة التأمين مجبرة على الدفع. ضحكت. قال

سمير لكامل إنّه يجب أخذ السيّارة من هنا. الرّائحة والأولاد وأنت تعلم. كان كامل حزينًا. أرجوكم. لم يوافق. قال لهم إنّه موافق. جاءت سيّارة الونش. مدّوا الحبل. ربطوا الحديد إلى السيّارة. وجرّوها في الشارع. كان صوت ارتطام الحديد بالإسفلت موجعًا.. إنّهم يسحلونها. مشى وراءهم. الونش يسير بطيئًا والشباب يصرخون والأولاد يتفرّجون. الزوجة على الشرفة. وكامل يمشي خلف سيّارته. قال لهم.

لكنّها ذهبت.

هذه هي الحرب. أنا هو الوحيد الذي لم ينقطع عن العمل. أصبحت أذهب ماشيًا إلى المكتب. أجلس وحدي. أردّ على تلفونات المدير. أستمع إلى آرائه ونصائحه. كلّ شيء تغيّر. حتّى صوت المدير تغيّر كثيرًا. أصبح ليّنًا. يخبرني النكات ويسأل عن العائلة. وفي نهاية الشهر يأتي الجميع ويقبضون. لماذا لا أفعل مثلهم؟ أنا الموظّف الوحيد في الجمهوريّة اللبنانيّة. لكنّي لا أستطيع. ماذا أفعل في البيت. لم يعد هناك سوى فتيان الحيّ بأسلحتهم وضحكاتهم وموتهم. حتّى زوجتي تغيّرت: هي تقول إنّ السبب هو الحرب. لم تعد تحتمل الحرب. وأنا متأكّد أنّها تغيّرت منذ موت السيّارة. تحتقرني. أبي يقول دائمًا إنّ المرأة مخيفة. إذا سقطت تركب على ظهرك. عليك أن تبقى دائمًا واقفًا أمامها. كلّ شيء يسقط. السيّارة تسقط، العمل يسقط، والعنزة تركب على الفحل. وأنا وحدي مع الصحف والعرق والأفكار السوداء.

ثمّ توقّف المكتب. لم يعد يفتح إلاّ في نهاية الشهر من أجل

القبض. . وأصبحت القذائف في كلّ مكان، والناس ينامون في الملاجئ. وكامل يختلف مع زوجته، والأولاد يبكون.

ينزل إلى الشارع، يختلط بالشباب، يتعرّف إليهم. يلمس البنادق، ويعجب بهذه الشجاعة التي لا تخاف الموت. يسألهم أخبار الحرب. يخبرونه. طبعًا يكذبون قليلاً. لكنّ أصوات الانفجارات تؤكّد له أنّ هناك حربًا حقيقيَّة. وأنّ هؤلاء الشباب يقاتلون في حرب مثل الحروب التي نقرأ عنها في الكتب. وكان مشهد المصادرات يذهله. القمصان الملوّنة والثياب الجديدة. رفض قميصًا قدّم له كهديّة، ثمّ قبله في اليوم الثاني.

الزوجة تولول. المال الحرام. كلّ شيء حرام، يجيبها، ثمّ يعود إلى الشارع. لكنّ أجمل شيء هو السيّارات. كلّ يوم سيّارة جديدة مصادرة. فكّر كامل أن يقود السيّارة الجديدة.

ــ أنا أقودكم يا شباب.

ــ لكنّنا ذاهبون إلى وادي أبو جميل. وهناك قنص على الطريق.

ــ أنا سائق ماهر. لا تخافوا.

صعد إلى السيّارة، أدار محرّكها. ثمّ أطفأ المحرّك. . .

ــ أنا مشغول الآن. بسيطة غدًا أقودكم.

ضحكوا. ابتسم لهم. كان قد قرّر أن يقرّر الشيء الذي حلم به طويلاً ولم يجرؤ على إعلانه. يجب أن أذهب معهم. هناك أجد السيّارات. لكن كيف أذهب؟ زوجتي أصبحت مجنونة،

والدولاب لا يزال في وجهي. يجب أن أتخلّص من الدولاب أوّلاً.

الدولاب في المنزل. يقف في غرفة النّوم. اشترى كامل دولابًا جديدًا لسيّارته، رغم أنّ دواليبها الأربعة تعمل جيّدًا. دولاب احتياطيّ، قال لزوجته، ولم يقل لها إنّه اشتراه، لأنّه رخيص الثمن.

ـ يجب أن نضعه في صندوق السيّارة.

لكنّها رفضت.

ـ الصندوق صغير، نضع فيه عربة الأولاد، والأشياء المختلفة.

أقنعتني. ووضعنا الدولاب في الغرفة. ثمّ ماتت السيّارة. أريد أن أرميه. لكنّها لا توافق.

ـ نأخذ الدولاب المطّاطيّ، ويستعمله الأولاد للسباحة في البحر.

إنّها تهزأ منّي. إنّها تحتقرني. أمسك كامل أبو مهدي الدولاب. حمله وخرج من الباب ورماه على الدرج. الدولاب يسير وحيدًا. يقفز الدرجات بسرعة، وكامل يتبعه بعينيه وجسده. صرخ الرّجل. اصطدم الدولاب برجل. والرّجال لا يمزحون هذه الأيّام. شتم شتمت. سحب مسدّسه. أمسكه بيده اليمنى وتقدّم نحوي. لا أعرف هذا الرّجل. تقدّم نحوي. كان الدولاب مرميًا كالجثّة. تقدّم، ووضع مسدّسه أمام وجهي وبدأ يضربني على فكّي بقبضته اليسرى. وأنا لا أشعر بالألم. لكنّي

أرتجف أمام فوّهة المسدّس. أكمل الرّجل صعوده. صعدت خلفه. دخلت إلى البيت ولم أقل كلمة واحدة.

ـ ٤ ـ

المصادرات شيء آخر. ما هذه المدينة؟ المدينة قحبة. من يستطيع أن يتخيّل أنّ القحبة تضاجع مليون رجل وتبقى. والمدينة يسقط عليها مليون قذيفة وتبقى. المدينة قذائف. العطش. مدينة بلا ماء. الكهرباء بسيطة، نستطيع أن نشتري قنديلاً آخر. أمّا الماء. حتّى العرق على أجسادنا أصبح ملحًا فقط. لم يعد هناك ماء يخرج على القمصان ويلوّثها. المدينة مالحة. لم أعد أحتمل. أعطاني سمير مسدّسه، قال لي إنّه سوف يأتي معي. لكنّه لم يأت. كنت خائفًا. لا وجود للبوليس ومع ذلك أخاف. وضعت المسدّس على وسطي كما يفعل الجميع. انتظرت في الشارع، لم يأت سمير. كنت خائفًا. بيروت طويلة. الظلام وأصوات القذائف. وكان الرّجل يمشي وحيدًا في الظلام. أشعل عود ثقاب، فارتفع ظلّه على حيطان المدينة نصف المهجورة. ثمّ انطفأ العود وانطفأ الظلّ. الأصوات البعيدة تقترب، والرّجل يمشي شبه منحن إلى جانب الحائط. القطط تتثاءب في الشوارع. أكوام النفايات ترتفع والرّائحة ترتفع. والرّجل الذي يمشي ملتصقًا بالحائط، يحاول أن يجد طريقه بين الأشياء. اقترب أكثر. كانت السيّارات تقف في الشارع كأنّها نائمة. تابع سيره وتوقّف أمام سيّارة ڤولسڤاكن. أشعل عود الثقاب، لكنّها قبيحة. المسدّس يرتجف

على خصره. وصل إلى مفترق زقاق البلاط. تقطع الشارع العريض فتصل إلى مدخل وادي أبو جميل. هناك السيّارات التي هجرت والبيوت التي دمّرت. والحرب. بيروت هادئة وتسبح في الظلام. ثمّ بدأ صوت القنص الخفيف. أحسّ أنّ الشارع يترنّح من الطلقات. ثمّ دوّت الرشّاشات الثقيلة. تراجع قليلاً إلى الوراء. كلّ شيء يرتجف. قرّر العودة إلى منزله. أدار ظهره للشارع العريض ومشى بطيئًا. أحسّ أنّ فوّهة البندقيّة مصوّبة إلى ظهره. أصبحت رقبته ثقيلة، كأنّ الفوّهة في الرّقبة. أسرع قليلاً. صوت قدميه يختلط بأصوات الطلقات. ركض. كان يلهث والمسافة إلى المنزل لا تزال طويلة. الجرذان تقفز بين القدمين، والملح ينتشر على الجسد.

عندما وصل كامل أبو مهدي إلى البيت، كان قد اقتنع. ماتت السيّارة. لكنّ زوجتي تصرخ. اصطنعت الجدِّيَّة. أريد إيهامها أنّني كنت مع الشباب. صرخت في وجهي كأنّني طفل صغير. إنّها تشبه العنزة. تصدر أصواتًا شبيهة بأصوات العنزة الجائعة. قادتني إلى الملجأ. قلت لها إنّني أريد أن أنام في سريري. رفضت وقادتني إلى الملجأ ونمت إلى جانبها.

جميع النّاس يخافون القذائف ما عدا الأطفال وبائعي الخضرة. القذائف في اللّيل، أمّا النهار فللأولاد. حتّى هذا القانون فرطوه. أصبحت القذائف في اللّيل والنّهار. النّساء يصطنعن عدم الانتباه والأولاد في الشارع. القذائف تتطاير. اشتعلت سيّارة داخل الكاراج. أين الأولاد، صرخت زوجتي.

ركضت، تبعتها. كان الطريق مليئًا بالحفر والأولاد

يتجمّعون. زوجتي تولول. جميع النّساء يولولن. رأيت اللّون الأحمر. نظرت: كانت زوجتي تقف أمام الأولاد في المدخل. صرخت بها أن تصعد إلى البيت. اصعد معنا، صرخت.

كان شعرها طويلاً، والدم يغطّيها. تستلقي على الرّصيف فوق بركة دم، كأنّها خروف جميل يشرب ماء. لم يتقدّم أحد. جميع الرّجال يقفون أمام مداخل البنايات. ثمّ جاء فتى يضع نظّارتين على عينيه. حمل الفتاة. انتشر الملح. تساقط الدم على وجهه وثيابه. حملها ووضعها في سيّارته البرتقاليّة وذهب. ثمّ قالوا إنّها ماتت. وأصبحنا نقضي النهار في الملجأ. وحين جاء سمير والشباب بالملصق الأزرق لم أصدّق. الملصق أزرق والفتى هو نفسه. النظّارتان، الوجه المستدير. الكتابة الحمراء. اسمه طلال قالوا. نظرت إلى الملصق، كان الدم يتساقط. الدم يغطّي الورقة الزرقاء اللاّمعة. يغطّي الأحرف البيض والشعارات التي كتبت. كان دم الفتاة التي تشبه الخروف، يغطّي جدران المدينة. تذكّرت هاني وبكيت. والفتى ينظر من الملصق كأنّ الملصق نافذة. عيناه لا تتحرّكان، الدم يسيل فوقهما. لكنّهما تشبهان عيني أمّي. قلت له. كانت الفتاة مالحة. حتّى لون الدم لم يكن مهمًّا. مالحة وحارّة. جميع الأشياء التي لها طعم لها رائحة، ما عدا الملح. ليس للملح رائحة، لكنّه يكتسح الفم. ينبت على الأيدي والأكتاف وينتشر في شعر الرّأس. والملصق الذي يملأ حيطان المدينة التي لم تتهدّم، يجاور الملصقات الأخرى وينزف الدم الذي يشبه الخروف والإيقاع يتصاعد.

كنت عطشانًا. قالت لا يوجد ماء. ذهبت بعيدًا إلى الحديقة العامّة التي أصبحت مليئة بالذباب. غسلت وجهي. ملأت الأوعية. لكنّ الملح كان لا يزال على ثيابي.

لم يعد كامل أبو مهدي يفهم. أصبح يقول إنّ الصحف لا لون لها، لكنّه يقرأ مثل الجميع، ويستمع إلى الراديو مثل الجميع، ويؤمن بالله مثل الجميع. وكانت بيروت تتلألأ مثل سفينة مطفأة الأنوار داخل البحر المظلم. الجميع نائم. هدوء يشبه القبور ووقف إطلاق النّار، حين اشتعلت المدينة بالّنور. جميع البيوت أضيئت دفعة واحدة وسط إطلاق نار كثيف وفرح. استيقظ الجميع وفرحوا. عادت بيروت إلى بيروت. استيقظ كامل أبو مهدي، جلس على الشرفة وترك البيت مضاء. ومع الكهرباء جاءت الماء. نهضت زوجته وملأت جميع أوعية المنزل. الكهرباء والماء، هذه هي السعادة. كان كامل يفكّر. وعندما قال ذلك لزوجته شتمته. انهض وساعدني في حمل الأوعية. لكنّه لم ينهض. يريد أن يستمتع بالكهرباء حتّى النهاية. يريد أن يشمّ رائحة بيروت التي قالوا إنّها ماتت. شرب فنجان قهوة، وبقي مستيقظًا حتّى الثالثة صباحًا حين انقطعت الكهرباء. عاد إلى النوم فرحًا. لكنّه حلم أنّ سيّارته عادت إلى البيت. كانت السيّارة مليئة بالغبار والوحل. عادت وحدها. تسلّقت الدرّج قرعت الباب ودخلت. كانت مليئة بالشعر وتشبه الكلب. نبحت، مرّغت فمها بقدميه، دارت حوله. لم يكن لها عينان. اقترب منها فوجدها كما تركها. جلس في المقعد الأماميّ، أمسك المقود بيديه. انهار المقود، سقط، فارتطم

رأسه بالنافذة. انكسرت النافذة. وأصبح المقعد يصدر أزيزًا متواصلاً. كانت زوجة كامل تقف في مواجهته. تلبس ثوب الزفاف الأبيض وتحمل باقة حمراء وتبتسم للمصوّر. أراد أن يقول لها إنّ السيّارة عادت، وإنّها تشبه الكلب. لكن لا ذيل لها. أراد أن يقول لها إنّ المقود انكسر ولكن من الممكن إصلاحه. أراد أن يقول كلّ شيء، لكنّها لم تلتفت إليه. كانت تنظر إلى المصوّر وتبتسم. وكامل يتصبّب عرقًا. فتح باب السيّارة. لم ينفتح. الزوجة تصبح حمراء بلون الفتاة التي ماتت. تفتح المرأة فمها كي تقول شيئًا. فيخرج الدم من فمها وأنفها. أخرج كامل رأسه من النافذة، فرأى الرّجل عاريًا ولكنّه بدون أعضاء تناسليّة. صرخ. كان صوته ناشفًا. وكان الملح يغطّي جدران البيت. نهض كامل مذعورًا. لم يجد شيئًا أمامه. الزوجة نائمة، والأولاد نائمون والمدينة نائمة. فعاد إلى النوم.

لكنّ الحرب لم تنته. جميع الذين قالوا إنّ الحرب انتهت، كانوا يعرفون أنّ هذه الحرب لا تنتهي. يعود الظلام إلى المدينة وتعود أصوات القذائف. تعود الحرب فجأة. تتوقّف ببطء بعد مفاوضات طويلة ومداخلات وشخصيّات وراديو والمذيع المحبوب الذي يحبّه جميع الموظّفين لأنّه موظّف مثلهم. لكنّها تعود فجأة. تنقطع الكهرباء ويبدأ القصف. والناس تهرول إلى الممرّات والملاجئ والغرف المحميّة والبيوت التي تركبها البيوت.

لا أعرف كيف استيقظت كانت البناية ترتجّ. الدخان والأصوات. صرخت زوجتي. صرخت. الأولاد حولنا.

ركضنا. الأرض تلتمع. وقفنا في الممرّ القريب من المطبخ. بكى الأولاد. قالت زوجتي ننزل إلى الملجأ. ركضت، فتحت الباب. نزلنا. كان النّاس. جميع سكّان العالم تجمّعوا في درج البناية، يهرولون إلى الملجأ. حملت طفلتي. مشى الولدان أمامي، وكانت زوجتي تحمل الطفل الصغير الذي يبكي. وهو نصف عار. لم أسألها لماذا الولد نصف عار. النّاس كالأشباح، يحملون عيدان الثقاب والشموع ويركضون. النساء بقمصان النّوم والرّجال حفاة، والأولاد يسقطون ثمّ ينهضون. الغبار والدخان. بدأت أسعل. زوجتي تمسك بكمّي. الولدان يمسكان بقدميها وأنا أمسك الحائط. الحائط يرتجّ ويرسل الدخان والأنين. حاولت أن أسرع لكنّ الزحام. ماذا نفعل بالنّاس. الجميع يصرخون. أنت، صرخ. قلت إنّني لا أعرف ولا دخل لي. أنا مواطن عادي. يقف على الدرج أمامي.

ـ لماذا رميت الدولاب.

قلت له إنّ الدولاب سقط. رفع مسدّسه. المسدّس يلتمع. أمسكه بيديه الاثنتين فخرج صوت مخيف. قلت له بسيطة. تقدّم، وضع المسدّس بين عينيّ، لم أعد أرى. ضربني بقبضته اليسرى. سقطت على الأرض. نهضت. ضربني مرّة ثانية، ومرّة ثانية سقطت. نزف الدم من فمي. سوف أكسر رأسك. لم أرفع عيني. عدت إلى البيت ولم أقل لزوجتي إنّني خائف.

أنا خائفة، صرخت زوجتي. لم أجاوب. قلت لها إنّ هذا الدرج طويل. وكان الظلام. اختفى الجميع.

ـ أين علبة الكبريت؟

ـ نسيتها. سوف أصعد لأجلبها.

ـ لا تتركني. أنا خائفة.

أنا خائف، قلت لها. أين ذهبوا. لم يعد هناك أحد. زوجتي تمسك بيدي والأولاد يبكون.

ـ نسيت الرضّاعة في البيت.

لم أقل لها إنّي سأذهب لأجلبها. سقطت الطفلة من يد زوجتي. بكت. لم أسمع بكاءها. الدم ينزف. القذائف تقترب. والدخان يقترب. الظلام كثيف، صرخت زوجتي، ثمّ بدأت ترتجف بالبكاء. نزلنا. الصمت والدخان. توقّف القصف. لكنّ الدخان. في الظلام لا ترى سوى الدخان. نزلنا ببطء، كانت الدرجات ثابتة. لم يتكلّم أحد. لكنّ الدرج لا ينتهي.

كانوا ستّة كائنات حيّة، ينزلون ببطء. الظلام يبتلع الدرج والدخان يبتلع الظلام. والمرأة تبكي بصمت. الدرج لا ينتهي. كامل أبو مهدي يعرف هذا الدرج جيِّدًا. ثمانون درجة. يعدّها وهو يصعد ويعدّها وهو ينزل. لكنّه نسي أن يعدّ في هذا القصف. لا بدّ وأنّنا تجاوزنا هذا الرّقم. شعر فجأة بطعم الملح. الملح في الشفتين، قلت لزوجتي. من أين سقط الملح. قلت لزوجتي إنّ الملح في ثيابي. سمعت أنينها. أنا أنزل ببطء شديد. أهبط هذا الدرج الذي لا ينتهي. استندت إلى الحائط. كان الحائط مالحًا ويرسل أصواتًا تشبه أصوات القطارات البعيدة. وأنا أنزل ببطء. زوجتي إلى جانبي، الأولاد

بين أقدامنا والدرج بطيء. أين الماء أشرت بيدي. لم يرني أحد. وكنت أهبط الدرج ببطء شديد.

٥ ــ ساحة الملك

كنت أسير مسرعًا. الدهاليز الرطبة ورائحة المطر المتعفّن وثيابي المبلّلة بالماء. أبحث عن الاتّجاه الصحيح بين دهاليز لا أعرفها. أشتم وأحاول أن لا أبدو مضحكًا. فأنا منذ أتيت هذه المدينة، أركض من مستشفى إلى مستشفى ومن طبيب إلى طبيب والجميع: الممرّضات والأطبّاء يهزّون رؤوسهم، يجرون الفحوص الطبّيّة: لا شيء، لا نعلم ربّما غدًا. أجوبة وأجوبة حتّى أكاد أصاب بالهستيريا والقلق الفادح. ومنذ ليلة أمس، وبعد نهار طويل من العذاب والاستنطاق، قرّرت أن أنتبه كثيرًا: عليّ أن لا أبدو مضحكًا. اكتشفت هذا أوّل الأمر حين أمسكت الممرّضة بيدي. يدي ممدودة على بساط بلاستيكيّ غرست عليه آلاف الإبر الحادّة. وحولي ثلاث ممرّضات. ابتسمت الممرّضة ثمّ بدأت تخيط يدي إلى البساط البلاستيكيّ. سألتني عن مهنتي في محاولة منها لإلهائي عن الموضوع. قلت لها إنّني لا أعمل شيئًا. دنت الممرّضة الثانية منّي وقالت: هل تعلم كم ستدفع من أجل هذا الفحص الطبّيّ؟

ـ لا أعلم.

ـ ٣٨٥ فرنكًا فرنسيًّا.

ـ لن أدفع.

ـ سوف نضعك في السّجن.

هنا انفجرت ضاحكًا. كان الجوّ مشحونًا بشيء ما. فانفجر الضحك وضحكت الممرّضات.

ـ ولكن لماذا تضحك؟

ـ لأنّ السّجون شيء مؤقّت، قلت لها. نحن ألغينا السّجون. وحتّى المستشفيات كنّا على وشك إلغائها لولا بعض الأمور المعقّدة. طبعًا لم يكن هناك وقت لإخبارها كيف هجم الأطفال في حيّنا على سجن النّساء وسرقوا سقفه. أخذوا القرميد. فكّوه قطعة قطعة. فالجوّ لم يكن مناسبًا. والمهمّ الآن هو يدي. طبعًا، دفعت المبلغ كلّه بعد ذلك، ليس خوفًا من السجن ولا من الممرّضة. ولكن هكذا، لأنّني كنت حزينًا. اندفع التيّار الكهربائيّ داخل ذراعي اليسرى. شهقت، كان العصب يضرب بوحشيّة لا متناهية. تنفّس عميقًا، أُصرخ، قالت الممرّضة. تنفّست، لكنّ وجهي كان يتقلّص. في تلك اللّحظة اكتشفت البسمة على وجوه الممرّضات. لا بدّ وأنّ وجهي المتقلّص وسط بحر الألم هذا يبدو مضحكًا. حاولت ضبط أعصابي وإيقاف التقلّص العضليّ. توقّفت عن التنفّس. لم أكن أستطيع. فالألم يمتدّ إلى جميع أنحائي. الكهرباء تسحق جسدي. ثمّ فجأة توقّف كلّ شيء. نهضت عن الكرسيّ. مشيت. حاولت أن أمشي بسرعة. سقطت على الأرض. لا تنس أنّك مريض، قالت الممرّضة. وعندما دفعت ثمن الفحص الطبّيّ كاملاً كانت تبتسم.

توقّفت عن الرّكض السّريع وسط هذه الغابة المليئة بالأصوات. عليّ أن أكتشف الاتّجاه الصحيح. فهي تنتظرني ولن تنتظر كثيرًا. في المرّة الماضية أتيت قبل الموعد بنصف ساعة. انتظرتها على كرسيّ في مقهى يضجّ بآلاف الأصوات، لكنّها لم تأت. وعندما اتّصلت بها في المساء جاوبتني معتذرة. أخذنا موعدنا اليوم، ولكنّها كانت تهدّد: لا تتأخّر. لن أنتظرك أكثر من خمس دقائق. وها أنا أحاول أن لا أتأخّر: لكنّ المشكلة أنّني لا أستطيع اكتشاف مسالك الدرب. فأنا مريض، ودهاليز المترو معقّدة، ونصف اليافطات التي تشير إلى الاتّجاهات نزعت. مشيت بهدوء. توقّفت أمام بائع الصحف حين شممت رائحة نبيذ حادّة تقترب منّي. ثمّ بدأ يقبّلني ويصرخ. كيف أتيت؟ متى أتيت؟ نظرت جيّدًا وبدأت أضحك. أخيرًا هذا هو برجيس نهرا.

ـ أخبرني، تعال. لماذا لا تأتي لتزورني؟

أخيرًا هذا هو نرجيس نهرا.

ـ لم أكن، لا أريد، أنا مستعجل، غدًا.

لكنّ برجيس نهرا يمسكني. يشدّني من ذراعي، تعال. رجل مربوع القامة، أشقر الشعر، سميك الرّقبة، يميل قليلاً إلى البدانة، يتكلّم عشرين موضوعًا دفعة واحدة. كان ذلك منذ خمس سنوات. وبرجيس نهرا لا يزال يحنّ إلى قريته. أنا ماروني من بدادون. وكان ذلك منذ خمس سنوات. كنت فقيرًا أكثر من الطلاّب الفقراء. وربّما كان فقري هو الذي دفعني إلى

تلبية دعوته. دخلت بيتًا. أخيرًا أدخل بيتًا وأجلس إلى مائدة حقيقيّة. كنت جائعًا. أكلت كأنّي أرى الأكل لأوّل مرّة في حياتي. شربت وشرب هو. وبقينا نسكر من الثانية عشرة ظهرًا حتّى المساء. في البداية لم أتكلّم. الحديث كان صعبًا وأريد التفرّغ للأكل. وبعد أن سكرنا، واستمعت طويلاً إلى ذكرياته عن قريته وعن إفلاس والده وعن مغامراته، بدأ يتحدّث في السياسة. دعني من السياسة، قلت له. لكنّه أصرّ. بدأ يتحدّث عن الفدائيّين ومذابح أيلول. وكان يتكلّم بلغة عسكريّة يتقنها جيّدًا.

ــ ولكن من أين تعرف كلّ هذا؟

أنا مقاتل. كنت مقاتلاً حقيقيًّا، أجابني.

طبعًا، لم أقبض كلامه. فالكرش الصغير المتدلّي، والمطعم الفخم الذي يملكه، لا تؤكّد ادّعاءاته.

ــ ولكن أين؟

ــ في ڤيتنام.

مرّة ثانية لم أقبض كلامه. تركته يتكلّم وانصرفت إلى قطرات الكونياك أحاورها. كان يتكلّم ولم أكن أستمع، حين بدأ الدويّ. أصبح صوته يدوّي في الغرفة مثل المدافع. قفزت.

ــ ماذا تقول. الفرقة الأجنبيّة!

ــ نعم الفرقة الأجنبيَّة.

ــ مرتزق، حقير، متوحّش.

نهضت، حملت قنّينة الكونياك وهجمت عليه. هرب من أمامي. اسمع، أنت سكران، كان يصرخ. يجب أن لا يفقدك النبيذ أصول التعامل مع الناس. اسمع رأيي، أنا معكم ومعهم ولكن اسمع. لم أكن أستطيع. ركض إلى غرفة النوم وأغلق الباب بالمفتاح. يبدو أنّ منظري كان مرعبًا. فلأستمع. هدأت وجلست على الأريكة بانتظاره. عاد.

ـ اِسمع يا أخي جيّدًا. المسألة معقّدة. كنت فقيرًا، ولم أكن أملك إجازة إقامة في باريس. اعتقلتني الشرطة وخيّروني بين السّجن والفرقة الأجنبيّة. ماذا تريدني أن أختار؟

ـ العودة إلى لبنان.

ـ كان هذا مستحيلاً. لبنان لم يكن واردًا يومها. السّجن أو ڤيتنام، فذهبت إلى ڤيتنام. حاربنا كثيرًا، ولكن ليست هذه هي المسألة. المسألة أنّنا كنّا نعرف أنّ هزيمتنا حتميّة. غير أنّنا بقينا لنحارب. التزمنا الحرب، إذن يجب تنفيذ التزاماتنا. أنا مارونيّ عنيد لا أنسحب. كنت أعرف أنّ الفرقة الأجنبيّة وجميع فرق الجيش الفرنسيّ سوف تهزم. غير أنّي بقيت معهم وحاربت لأنّي رجل عنيد. ثمّ بدأ يضحك. لا تصدّق قصّة العنيد هذه، أقولها الآن لأنّي شربت كثيرًا. فلقد حاولت الهرب مرارًا، أو حتّى لا أكذب عليك، فكّرت بالهرب. لكن هذا كان مستحيلاً. الحرب شيء منظّم بدقّة، ولم يكن من مخرج سوى البقاء. عدا أنّني أحببت هناك امرأة ڤيتناميّة وتزوّجتها. أنا لا أكذب. كنت أعود في المساء إلى الكوخ المليء بالطّين فأجدها في انتظاري هي والبرميل. تضعني في برميل ثمّ يبدأ الماء ينزلق على

جسدي. أنهض شبه عار وألتهم طعامي مع نبيذ الأرزّ. أسكر وأبقى جالسًا. أنام معها وأنا جالس، فالذي يشرب هذا النبيذ لا يستطيع الوقوف أو الاستلقاء. كانت امرأة جميلة. بقيت جميلة حتّى ماتت. أعتقد أنّها ماتت عندما كانت المدفعيّة الفرنسيّة تمشّط المناطق الڤيتناميّة قبل هزيمة ديان بيان فو. ورغم موت زوجتي وموت الألوف، كانت الهزيمة حتميّة. حملوا المدافع على الدرّاجات، تسلّقوا بها الجبال على أكتافهم، وكان لا بدّ من الاستسلام. لكنّ أفضل شيء هو البرميل. أنا علاقتي مع الحرب علاقة مزدوجة، علاقة مع امرأة جميلة وعلاقة مع برميل.

لم أعد أذكر كثيرًا، فهذا الحوار جرى منذ خمس سنوات ومن يومها أصبح برجيس نهرا صديقي. الصداقة تعني بالنّسبة لي شيئًا محدّدًا، أن نسكر مرّة في الشهر. أمّا بالنّسبة له فكانت مناسبة لطرد زوجته الفرنسيّة من البيت والتكلّم بالعربيّة. لكن عندما أتيت هذه السنة لم أكن أريد مقابلته. فالحرب الأهليّة جرحت جميع العلاقات. ومن المؤكّد أنّ أخبار دخول الفدائيّين إلى بدادون في إحدى ليالي الحرب وصلته. لذلك لا أريد مقابلته. لكنّه هنا، يقف أمامي صنمًا من الصدفة العجيبة.

ـ لماذا لم تأت لزيارتي. تعال فورًا. أنا أريد معرفة أخبارك وأخبار الحرب في لبنان. كان المستحيل هو إقناعه. أنا مشغول الآن يا سيّدي برجيس. نلتقي غدًا. كما تريد. نتكلّم في كلّ المواضيع. وعندما بدا أنه اقتنع بدأ يتكلّم كأنّه يهذي.

ـ أُنظر إلى المترو. أُنظر إلى هذه الدهاليز. هذا يعني أنّ

الحرب الأهليّة حتميّة. حرب أهليّة مع دهاليز المترو، شيء مخيف وأسطوريّ. تنهار جميع الحسابات وتدخل الأرض في باطنها. شيء مذهل.

ـ حتّى عندما تأتي لزيارتي، لا بدّ وأن تأتي معي إلى المترو. أعرف أنّك رأيت المترو. لكن انظر، انظر. المدينة التي تخترقها دهاليز المترو تهتزّ، سوف تنهار. الحرب الأهليّة هنا حتميّة.

ركبت المترو كثيرًا، وزرت الكثير من المدن، لكنّي لم أكتشف العلاقة بين المترو والدهاليز، وبين الدهاليز والحرب الأهليّة. فالمدن، جميع المدن، تتشابه. بعضها يخترقها المترو، وبعضها بدون مترو. لكن لا علاقة بين كلّ هذا والحرب. في القاهرة هناك مترو، ولكنّه فوق الأرض. الناس يتراكضون بين عربات المترو والباصات والأزقّة. يحرقون القطارات أو يتوقّفون عن حرقها. في بيروت لا يوجد مترو ولا توجد أنفاق. في ميلانو، قلب المتظاهرون حافلات المترو، عندما أقفل البوليس مداخله لمنع الناس من الالتحاق بالمظاهرات. في دمشق لا وجود لأنفاق المترو، لكنّ قاسيون يحفر ويهدم لكي يحوّلوه إلى ڤيلاّت جميلة أو قبيحة. المسألة هنا. مدن فوق الأرض ومدن تحت الأرض. بعد أن هدمت بيروت العثمانيّة بدأوا يبحثون عن بيروت الرومانيّة تحت الأنقاض. في الجوهر، جميع التغيّرات جيولوجيّة، مثل الزلازل والبراكين. يحفرون أحشاء المدن ليقيموا أدوات اتّصال، وأدوات إقامة. لكنّ الأدوات بأسرها لا تخدم في

النهاية سوى هدف واحد، الحرب والموت.

كنّا وسط دهاليز المترو، صوت برجيس يرتفع، وأنا أقف لا أستطيع أن أفعل شيئًا. هذه هي المسألة، يقول. المسألة أنّ هذه المدينة سوف تتهدّم في الحرب الأهليّة. كلّ المدن سوف تتهدّم. كنت أحاول أن أقول شيئًا. المسألة شيء آخر، لكنّي بدأت أخاف ولم أتكلّم. هذه المرّة أنا وبرجيس وصوت المترو والمترو نفسه نبدو مضحكين. لا يمكن أن أفعل شيئًا حتّى لا أبدو مضحكًا. صحيح أنا مريض. لكن هذا الرّجل لا يتوقّف عن الهلوسة.

ـ أرأيت؟ الحرب الأهليّة حتميّة. النّاس سوف تكسر بعضها كسرًا. المدن سوف تنهار. هذا شيء حتميّ وأراه كما كنت أرى صور الحرب الآتية من بيروت.

ـ ولكن يا برجيس...

ـ تخيّل معي، ماذا يمكن أن يحدث بين هذه الدهاليز التي تتشعّب إلى ما لا نهاية، وبهذه الأسلحة الحديثة المدمّرة؟ الحرب الأهليّة سوف تكون حرب المترو. أنت موافق. طبعًا موافق.

لست أدري لماذا بدأت أوافق. الكلام غير مقنع. ومنظر برجيس وهو يتكلّم عن الحرب بخشية وفرح لم يكن مقنعًا. التفاتاته الدائمة نحوي، وإمساكه بيدي مخافة أن أهرب ليست مقنعة. الحقيقة أنّني لم أقتنع بنظريّة برجيس، لكنّي بدأت أقتنع. رجل أربعينيّ تفوح رائحة الخمر من ثيابه. يقف وسط

غابة مليئة بالأصوات. النّاس يتراكضون وكأنّهم تأخّروا عن مواعيدهم. وأنا أنظر إلى ساعتي خوفًا من التأخّر. وهو لا يبالي. يتكلّم بيديه وصوته وقامته. يتمايل ويبشّر بالخراب. هؤلاء الذين يتراكضون سوف يتراكضون ولكن بدوافع أخرى، لأنّ الحياة لم تعد تستطيع أن تستمر هكذا. الأشياء تنقلب. البنادق والمدافع والحرب. وبرجيس يتكلّم ويخاف. وأنا أحاول للمرّة الأخيرة أن لا أبدو مضحكًا.

لكن ليست هذه هي المسألة.

* * *

المسألة كانت هناك. امرأة تضيء. أمسكتها بيدها وذهبنا إلى أصغر غرفة في العالم. كانت الغرفة حمراء. القرميد الأحمر والخشب الأبيض والستائر الصفر. وهي وسط الغرفة تنحني عارية وتضحك. تنزلق من يدي إلى السرير ومن السرير إلى الأرض ومن الأرض إلى يدي. امرأة تضيء. بيضاء، عيناها صغيرتان لكنّهما تمتدّان مثل العيون الصينيّة. وأنا أمسكها بشعرها وأغرق في نقطة الأوجاع التي تنحدر من كتفيها. أمسكها فتسقط. لكنّها لا تنكسر. تنطوي إلى نصفين وأنا نصفها الثالث وصوتها يرنّ مثل حديقة متوحّشة.

اقتربت منها. كانت قدماي تزحفان على الأرض، تخدشان خشب الغرفة. أتمايل وأنقسم ثمّ أقترب أكثر. اللّون الخمريّ ينتشر على الأرض مثل رائحتها. لا أتكلّم ولا أسكت. هذه هي حالة الحزن القصوى. جلست في طرف الغرفة وهي تمسك بنهديها. تقدّمت وأنا خائف. كلاّ لم أكن خائفًا. كنت أبحث

عن شيء ما، عن كلمة. لكنّها لا تزال في طرف الغرفة. وقفت وتقدّمت نحوي. أمسكتها من يدها فسقطت على الأرض وانكسرت، وامتلأت الغرفة بالشظايا. انحنيت عليها لألملمها، بدأ الدم ينزف وامتلأت الحيطان بالوحل والشجر. كنت أصعد الدرج بأقدام ثابتة. لم أعد أستطيع التقدّم. أمسكت بها. كانت الأضواء تلوّن السماء، وكان الجسد عجينًا يتلوّن كلّ لحظة. أخذتني. ارتجف جسدي قليلاً كأنّه في حمّى، ثمّ سقطت. وكانت المسافة طويلة جدًّا.

هي كانت المسألة. كنت أمسك بها فلا أمسك شيئًا. تتركني مذهولاً وتركض. أركض خلفها. هكذا اعتقلتني داخل حلم من الصعب الخروج منه. كان ذلك في الخريف، وكانت السماء حمراء بألوان الأوراق، وأغصان الشجر المنحنية. وكانت هي إلى جانبي تبحث عنّي حين أضيع وتضيّعني حين أجدها. وكانت مذهولة بكلّ شيء. حين ترى الشجر وقد لبس الأحمر، تصاب بالدهشة، وتنظر إلى السّماء وكأنّها لم تر سماء من قبل. كلّ شيء صار جديدًا لم نألفه. في البداية، أعجبت بنمط الحياة الجديد، ثمّ بدأت أتضايق. لا يمكن أن نمارس الحياة هكذا دون نقطة ثابتة. لا يمكن أن أعيش هكذا مفتّتًا في الهواء. غير أنّها أصرّت، كانت تعيش حياتها كما تعيش الحياة. بدأت أكتشف بها الحياة. رميت نفسي في الدهشة. مرّة كنّا نركض أو نسير في شارع طويل مليء بالأشجار الحمراء. كانت إلى جانبي وأمامي وورائي. وضعت يدي على شعرها ومشينا بهدوء. حاولت أن أتكلّم معها. لم يكن هذا ممكنًا. من الصعب التكلّم مع هذه المرأة. عليك أن تبدأ كلّ شيء من

البداية كأنّك تتعرّف عليها هذه اللّحظة. لذا لم نكن نتكلّم إلاّ نادرًا. أوقفتها وسط الشارع، وكانت الأوراق الحمر تنبت على يديها.

هذه هي الثورة قلت. هكذا، نهيش وسط اكتشاف كلّ شيء، وسط فراغ كلّ شيء. هذه هي الثورة.

ـ أنا لا أحبّ السياسة.

ـ وأنا لا أتكلّم في السياسة، بل أتكلّم عن الثورة.

ـ ولكنّ الثورة سياسة. أليست الثورة سياسة؟

ـ لكنّها تبدأ دائمًا، رغم السياسة أو داخل السياسة. إنّها الشيء الذي يبدأ دائمًا. مثل الحبّ، مثل الموت، مثلك.

لم تجاوب، كان جسدها شفّافًا. لا ليست مرآة. الشفافية الأخرى، حيث لا ترى نفسك، بل ترى خلف الأشياء كأنّك في حلم.

أمسكت بها ورميتها إلى الماء. لكنّها ليست سمكة، إنّها امرأة. لذلك بدأت تغرق. كان الماء ينحدر حول وجهها وبين نهديها. لكنّها ليست سمكة. أمسكتها وتسلّقتها إلى النهاية ولم تكن النهاية ممكنة. هذه هي المسألة.

جميع الأمور تبدو غامضة وغير قابلة للاستيعاب. لكنّها في النهاية تتداخل وتأتلف في مثلّثات. لا يمكنك أن تكتشف الأشياء عارية هكذا. إنّها جميعها تدخل في المثلّثات والمثلّث هو البداية أو ما يشبهها. والمثلّث يدخل في الدائرة. كلّ مثلّث

مهما كان شكله ومهما كان حجم زواياه يدخل في الدّائرة. والدّائرة لا بدّ وأن تنفجر. هكذا اكتشفت قصّتنا. لم أكن أستطيع أن أبدأ من الأحداث. فالأحداث غامضة ومشوّهة وغير قابلة للبداية. بدأنا كمثلّث. وكان ذلك في الجامعة. كنّا لا نزال نحمل بضعة أحلام عن الجامعة ونناضل من أجل بناء جامعة وطنيّة. ولم نكن قد اكتشفنا بعد أنّ الجامعة. سوف تتحطّم. طبعًا تحطّمت الجامعة داخل سياق آخر كما تحطّم كلّ شيء في هذه المدينة. لكنّ الكثير من الأشياء تبدأ من هذا المثلّث.

الضلع الأوّل: الدكتور حنّا. رجل في حوالى الخامسة والأربعين من عمره. طويل القامة. يخترق الشيب رأسه. ظهره ينحني قليلاً. يدخل إلى الصفّ مستعجلاً ويخرج مستعجلاً كأنّه على موعد دائم مع شيء ما. ولم يكن هذا الشيء واضحًا. كان من المفترض أن يعطي دروسًا في علم النفس. لكنّه لم يكن يتكلّم إلاّ نادرًا عن علم النفس هذا، أو عن أيّ شيء له علاقة بالموضوع. يحدّثنا دائمًا عن طفولته. سنوات الفقر حين كان يعمل شغّيلاً في محل لبيع الألبسة الجاهزة في سوق سرسق. وكيف استطاع بعصاميّته متابعة دراسته، ثمّ نيل شهادة الدكتوراه والوصول إلى الجامعة. لا أعلم لماذا لم أكن أصدّق حكاية العمل في سوق سرسق هذه. فأنا أجزم أنّه كان يعمل شيئًا آخر. ربّما كان نادلاً في مقهى. فشكله يشبه الغارسون وأناقته تشبه أناقة الذين يعملون في مقاهي شارع الحمراء. ليس هذا مهمًّا. المهمّ هو الكتاب. كان يدخل إلى الصفّ وهو يحمل في يده كتابًا مستطيلاً، يلوّح به في الهواء، ثمّ يضعه بعناية

داخل حقيبته. هذا هو انتمائي. أنا أنتمي إلى الكادحين لذلك أحمل أفكارهم وقضيّتهم. وكان الكتاب، على ما أذكر، يتحدّث عن علاقة الماركسيّة بالمسيحيّة أو عن الماركسيّة الإنسانيّة أو ما يشبهها من الخزعبلات التي كانت على الموضة في ذلك الوقت. كنّا نعجب بهذا الأستاذ وبماركسيّته الإنسانيّة وبكتابه المستطيل المكتوب باللّغة الفرنسيّة التي لم نكن نفهمها جيّدًا. ونعجب أكثر بإخلاصه لطبقته وإصراره العجيب على لوي يده اليمنى وهو يحدّثنا عن الديالكتيك. أنا منفتح. لست ماركسيًّا متعصّبًا. أنا رجل إنسانيّ، أفهم وأحبّ أن أفهم وعلى كامل الاستعداد لتغيير رأيي إذا اقتنعت بخطئه. هذا هو الديالكتيك. فالديالتيك هو مفتاح كلّ شيء. بقي يحدّثنا عن الديالكتيك ثلاث سنوات. وكلّ سنة يزداد إعجابنا بهذا الديالكتيك الجميل. حتّى حدث مرّة ودخل البوليس إلى الجامعة بحثًا عن الثوريّين المتعصّبين الذين لا يؤمنون بالحوار ويصرّون على رمي البوليس بالحجارة. يومها هرب الديالكتيك من الباب الخلفيّ وانصرف بكلّيّته إلى علم النفس.

الضلع الثاني: اسمه يعقوب. وكنّا نحبّه. كان طالبًا يشبه الشخصيّة الفهلويّة التي أهلكنا بها صادق العظم بعد هزيمة حزيران، حتّى أصبحنا نعتقد أنّ وراء كلّ هزيمة تقع هذه الشخصيّة السحريّة. لكنّه لم يكن فهلويًّا. كان كسولاً قليلاً. مقبلاً على الحياة. يحبّ الكأس والطعام الجيّد والثرثرة والضحك. وأهمّ شيء فيه أنّه يحبّ أصدقاءه. وكلّنا نحبّه. يأتي إلى الكافتيريا حاملاً كتاب أرسطو «الميتافيزياء» في يده. فيعقوب اختار الفلسفة. وأرسطو هو أساس الفلسفة. بدأ

الكتاب يهترئ، وهو موضوع على الطاولة في الكافتيريا. الغلاف يتآكل. لكنّ يعقوب، نظرًا لمشاغله الكثيرة، لا يجد الوقت الكافي للقراءة. كان لا يتخلّف عن مظاهرة واحدة. يركض في المقدّمة. يهتف. يرقص أمام خراطيم المياه. يضرب بأعقاب البنادق، ويعود في المساء تعبًا، بالكاد يجد الوقت الكافي ليشرب كأسًا من العرق ويغنّي بعض الزجل وينام. كنّا نحبّه. ثمّ عندما ذهبنا إلى الفدائيين ذهب معنا وأصبح فدائيًّا. ثمّ سافر إلى أوروبا ليدرس. لم يبق معنا ليكتشف لعبة الموت. ربّما لو بقي، لالتحق برفاقنا الذين ماتوا. وكنّا نسينا حكاية أرسطو، ونحن نذكره، حاملاً بندقيّته، ينحني على قطرات دمه ويموت. لكن أليس من الأفضل أن لا نموت؟ بعد كلّ هذا إذا لم نمت نستطيع أن نقيم حروبًا أخرى، وربّما تكون أفضل من هذه الحرب. ويومها يكون يعقوب قد عاد، وترك أرسطو وراءه وحمل معنا بندقيّة الفدائيّين.

الضلع الثالث: كان ذلك بعد ٢٣ نيسان ١٩٦٩ مباشرة. كانت بقع الدم التي غطّت شوارع بيروت بداية لبحر الدم الذي زلزل المدينة. جاء سالم إلى الجامعة. فوجد أنّ نصف الطلاّب دخلوا الصفوف. وقف في باحة الكلّيّة وألقى خطابًا. لم يكن خطابًا. كان مجموعة من الشتائم ضدّ البوليس والدولة وأميركا. ثمّ أضربت الكلّيّة. وحصلت بعض الاشتباكات بالأيدي بين الطلبة. وانصرف الجميع. وفيما كان سالم خارجًا من باب الكلّيّة في طريقه إلى بيته، اكتشف سيّارة كانت تنتظره وحملته بالقوّة إلى المخفر. جلست مع عشرات الطلاّب في غرفة معتمة حيث كانت الشتائم تنهال على رؤوسنا.

ـ أنا عطشان يا أفندي.

لكنّ الأفندي لا يجاوب.

ـ الله يخلّيك يا أفندي. أريد أن أشرب.

جاء الأفندي بإبريق ماء. وضعه أمام القضبان الحديديّة، وطلب منّا أن نقف، لنشرب من خلال القضبان.

ـ ولكن يا أفندي ما هذا؟ ولو... نحن لسنا في إسرائيل. ماذا فعلنا؟

أخذ الأفندي إبريق الماء ولم يشرب أحد. ثمّ عاد وحوله ثلاثة أفنديّة قبضايات. فتح الباب وبدأ يأخذنا واحدًا واحدًا. نضرب بوحشيّة بالسياط، ثمّ يدوسنا بقدميه. نبطح أرضًا ويقف على جسدي ويدوس ويدوس حتّى يشبع أو حتّى ينزف الدم من أذني. ثمّ جمعونا في طابور ثلاثيّ. وقف الضابط وألقى خطابًا عن لبنان ومحبّة لبنان. وطلب من الطلاّب الهتاف بحياة لبنان. هتفنا وخرجنا من المخفر. مسحنا آثار الجروح. لكنّنا لم نكن نعلم أنّ الحرب بدأت هذه اللّحظة. ثمّ امتدّت إلى مصانع غندور والقتل. ثمّ اشتعلت وبقيت مشتعلة.

المثلّث داخل الدائرة. لكنّنا لم نكن نعلم أنّ الحرب بدأت. كنّا نعتقد أنّ المسألة سوف تبقى داخل إطار ترتيب أوضاع المثلّث وتعديل شروطه. ولكن حين انفجر المثلّث، اتّسعت الدماء بغير حدود. اتّسعت فانهارت الدائرة بأسرها. كلّ دائرة محكوم عليها بالانهيار. هذه هي القاعدة. وعندما تنهار الدائرة تنكسر أضلاع المثلّث. ونجلس تحت المطر بحثًا عن مثلّثات

جديدة.

وحيدًا كنت. أنا الفارس الوحيد. وحولي اللّيل وامرأة تقول إنّها تحبّني ودائرة تنتظرني.

* * *

ــ ولكن يا برجيس نحن هنا ولسنا في بيروت أو برشلونة أو مدريد. وباريس مدينة ثابتة ومستقرّة. ولا لزوم للحديث عن حرب أهليّة فيها. بعد بضعة أشهر سوف تجري انتخابات الجمعيّة الوطنيّة، وليس فوز اليسار مؤكّدًا. حتّى إذا فاز فالأحداث على الطريقة التشيليّة ليست حتميّة. يستطيع جيسكار ديستان أن يحلّ الجمعيّة الوطنيّة، وتأتي الدولارات من أجل المحافظة على روح مؤتمر هلسنكي وينقسم الاشتراكيّون الفرنسيّون الذين نصفهم صهاينة ونصفهم الآخر عواطفه أطلسيّة وتتجنّب فرنسا الحرب الأهليّة. طبعًا باريس سوف تدمّر، مثل جميع المدن، ولكن ليس بهذه السرعة. أو ربّما ليس عن طريق حرب أهليّة. ربّما كانت الحرب العالميّة هي الطريق الوحيد من أجل الوصول إلى الدمار.

لكنّ برجيس لا يجاوب. يقف وسط الدهاليز ثمّ يقودني إلى خريطة كبيرة لخطوط المترو معلّقة على الحائط. ويبدأ في حديثه إلى نفسه. أُنظر، أُنظر، كان يقول.

ــ ولكن لماذا؟ هل أنت على حافة الإفلاس؟

ــ أبدًا، على العكس. ألم تر المطعم الجديد؟ غدًا تأتي وتزور المطعم الجديد.

ـ هل تشعر بضيق نفسيّ؟ هل تريد أن تطلّق زوجتك؟

ـ لماذا تسأل هذه الأسئلة السخيفة؟ أنا رجل متّزن، متحضّر. أنا تاجر.

ـ إذن، لماذا تسعى إلى الحروب الأهليّة؟

ـ أنا أسعى. لا، لا. أنا ضدّ الحروب الأهليّة. لكنّي أخاف. حين أرى ما جرى في لبنان، ينتابني شعور غامض بأنّ هذا الخراب سوف يعمّ العالم. وأنا أخاف من الخراب. لقد صنعت حياتي ثلاث مرّات انطلاقًا من الصفر. المرّة الأولى في ڤيتنام لكنّها تهدّمت. ثمّ ذهبت إلى الجزائر وفتحت مخزنًا لبيع الأدوات المنزليّة. وصدّقت ديغول. قال ديغول بأنّنا لن نغادر الجزائر فصدّقته. وسّعت تجارتي على أساس أنّنا باقون. أنا لم تكن تهمّني كلّ هذه الحرب. كنت على علاقة طيّبة مع الفرنسيّين بوصفي فرنسيًّا. وعلى علاقة طيّبة مع رجال جبهة التحرير بوصفي لبنانيًّا. لكنّ ديغول ترك الجزائر. هرب ولكن بشكل عقلانيّ هذه المرّة فأفقدني عملي وعقلي. تركت المخزن وأتيت إلى باريس لأبدأ من الصفر. ويبدو أنّ الأمور في هذا العصر اللّعين لا تقودنا إلاّ إلى الصفر.

ـ وإذا حصلت الحرب الأهليّة، إلى أيّ جانب سوف تقف؟

ـ لن أقف. أنا رجل عمليّ. أنا لبنانيّ عنيد. رأسي في جيبي. أضع رأسي في جيبي وأتركه يقودني. إذا نشبت الحرب الأهليّة أو إذا فاز اليسار سوف يقودني رأسي إلى مكان آخر. سوف أذهب إلى أميركا الجنوبيّة. ولكن، هذه المرّة ليس مع

الصفر، بل مع ثروتي. لقد جهّزت كلّ شيء.

مسكين برجيس. يقف أمام لوحة المترو ويؤشّر بيديه. مثل بوليس السّير الذي أصرّ على مزاولة مهنته في بيروت. جاء المسلّحون، أخذوا مسدّسه. لكنّه بقي يلبس بذلته الرسميّة، يقف وسط الشّارع ويؤشّر للسيّارات القليلة التي تجرؤ على المرور. ثمّ أصبح يؤشّر للقذائف. بقي هكذا واقفًا وسط شارع فارغ، يؤشّر لأيّ شيء، حتّى أصيب بقذيفة ومات.

ـ أُنظر كيف تتداخل المدينة داخل هذا المترو اللّعين إلى درجة الجنون. هنا تخرج إلى أحياء العمّال الجزائريّين. هنا الشانزليزيه. هنا ساحة الكونكورد. ماذا يمنع سكّان الأحياء العربيّة من الوصول إلى الكونكورد؟ الأشياء مفتوحة ومتداخلة، وتستطيع أن تدمّر بعضها في أيّة لحظة. ألم أقل لك؟ الحرب الأهليّة حتميّة. أخبرني، أخبرني كيف بدأت الحرب في لبنان؟

لم أخبره. كنت أقف وهي إلى جانبي. نخرج إلى ساحة الكونكورد فنرى السماء. نرى ساحة فسيحة وفوقها السماء. ليست السماء امتدادًا ولا الساحة. إنّها قبّة. أقف على الأرض فأشعر بقبّة فوق رأسي. زرقاء أو رماديّة أو بيضاء. والحجارة المرصوفة والمسافات الشاسعة التي بنيت من أجل العربات التي تجرّها الخيول. قطعة من السماء وقطعة من الأرض وأنا بينهما.

أُنظر، قالت. أُنظر إلى الحضارة.

أمّا أنا فلم أكن أرى الحضارة. كنت أرى مساحات واسعة

وعيونًا. لست أدري من أين أتت قصّة العيون هذه. لكنّني لا أرى سوى العيون والمساحات وبقايا السّماء.

أُنظر، قالت. أُنظر إلى الحضارة القديمة.

أمّا أنا فلم أكن أرى لا الحضارة القديمة ولا الحضارة الحديثة. كنت أرى الأشكال وهي تنحني. هنا يوجد كلّ شيء. الماء والخضراء والوجه الحسن والحجارة البيضاء. كلّ شيء يرقص بالأبيض. هذه علامة المستشفى. لا، هذه مسلّة مصريّة قديمة. فخلال حملة نابليون على مصر ذهب المؤرّخون والكتّاب والفلاسفة إلى جانب العسكر. العسكر يسرقون والعلماء يبحثون في تاريخ مصر القديمة. ثمّ اكتشف العلماء أنّهم يستطيعون أن يصيروا لصوصًا. فبدأوا يسرقون التحف الثمينة ومومياءات الفراعنة. وعلى الرّغم من اللّعنة سرقوا. لم يخافوا. وها هي المسلّة البيضاء تقف ناصعة وسط أجمل ساحة في العالم. تقدّمنا نحوها، كانت تحمل آلاف الرسوم والتواقيع. العصافير المصريّة، تطير من ناحية إلى أخرى. لوحات لا تحصى. تنظر إليها فترى الرّجال والنساء بالمئزر المصريّ القديم وعلى أفواههم تطير الكلمات التي تلتصق بالحجارة. وبين الرّجل والرّجل تقع المرأة وهي تحمل صورة الفرعون ـ الإله. أو طفلها الذي ولد لتوّه وسيخرج لبناء القبور.

ـ أُنظر، أجمل مسلّة في العالم تقف شاهدًا على تواصل الحضارات. والحضارات تتراكم، مثل التراب أمام مصبّ الأنهار. أعظم حضارة قديمة تقف وسط أعظم حضارة حديثة.

لم أفهم بالضبط معنى هذا الكلام. لكنّني أعرف أنّ الأحذية ووضعت على رؤوسنا باسم أشياء تشبهه.

ألم تقرأ الصحف؟ قالت. لقد جلبوا مومياء رمسيس الثاني من مصر. جلبوها كي تداوى في باريس. لقد بدأ الفطر ينمو على جبين رمسيس الثاني وبدأت الجراثيم تأكل يده اليمنى. لذلك أدخل هنا إلى المختبر في المستشفى. يداوى، ثمّ يعود إلى بلاده معزّزًا مكرّمًا. هذا دليل آخر على تواصل الحضارات.

لم أفهم. تقدّمت. نظرت إلى المسلّة البيضاء فرأيت رأسها مدبّبًا وأسود. وحين هممت أن أبدي دهشتي لهذا الإبداع المعماريّ الذي يمزج تداعيات الألوان، اكتشفت أنّ اللّون الأسود يتحرّك. إنّه ليس مجرّد لون. هذا جسم غريب يتحرّك وهو معلّق على رأس المسلّة المصريّة. يتحرّك يمينًا وشمالاً وكأنّه أحد أوجه الرِّيح. تقدّمت من المسلّة. لا فائدة. يجب أن أبتعد حتّى أرى. ابتعدت قليلاً فرأيت جسمًا صغيرًا أسود. جسم رجل يضع على رأسه التاجين. يهزّ رأسه ويبتسم للناس الذين يتجمّعون حول المسلّة ليتفرّجوا على هذا الملك.

ـ ما هذا؟ رجل على رأس المسلّة!

أنا لا أرى شيئًا، قالت. مجرّد نقطة سوداء وتسمّيها رجلاً!

ـ هذا رجل حقيقيّ. أنا متأكّد. هذا رجل حقيقيّ يجلس على رأس المسلّة، ويحكم الساحة.

ربّما كان حاكم المدينة الجديد.

وكان حاكم المدينة رجلاً يشبه رمسيس الثاني. يأتي كلّ صباح من كوخه في المختبر. يحيّي الجمهور الذي يصفّق له. ثمّ يضع حبلاً على وسطه. يتسلّق المسلّة ويجلس عليها. هكذا يشعر أنّه لا يزال ملكًا.

الرّجل القصير القامة، الذي يخرج كلّ صباح من المستشفى يمشي ببطء. فهو رجل مريض، نحيل الجسم، ينحني قليلاً. رجلاه صغيرتان. يتمتم كلمات غير مفهومة. يأتي بعضهم ويقبّل يده. لكنّه يرفض هذا دائمًا. إنّه رجل مشغول وعليه أن يحكم بلادًا شاسعة. وهو لا يفهم هذه التقاليد الجديدة في الحكم. لكنّه يمارسها. عليه أن يتسلّق مسلّة طويلة كأنّه أحد عمّال البناء. ثمّ عليه أن يجلس على شيء يشبه الخازوق. هناك عدّة أنواع من الخوازيق، يفكّر الملك. الخازوق المميت الذي يدخل في الجلد فوق العمود الفقري ويخرج من الرّقبة. خازوق التشويه الذي لا معنى له سوى الانتقام. حيث يؤتى بجثّة عارية أو شبه عارية ويجري إجلاسها على خازوق. وهناك هذا الخازوق. لا، هذا ليس خازوقًا يفكّر الملك. هذا هو العرش الجديد.

الألم الخفيف الذي يشعر به الملك يذهب تدريجيًا أمام جمال الساحة. يهبط في المساء عن عرشه ويسير في طريق طويل ومتعرّج. يستطيع أن يحيد عنه قليلاً إرضاء للجمهور، لكن عليه أن يصل في النهاية إلى المستشفى.

يأتي الملك. جلالة الملك بقامته القصيرة وانحناءاته التقليديّة ولباسه العصريّ. ينحني مرّة ثانية مخافة أن لا يكون

الجمهور بأسره قد رأى انحناءته الأولى، أو تأكيدًا على تواضعه الديموقراطيّ، أو لأيّ سبب آخر نجهله. لكنّ جلالته لا يجهله. فهو يعلم كلّ شيء. والناس على دين ملوكهم كما يقول أبي. والملوك هم أسياد القرى حتّى إذا أفسدوها. «إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزّة أهلها أذلّة»، كما يقول أبو زياد عندما نسأله رأيه في الأوضاع الرّاهنة. لكن أبو زياد لا يفهم في السّياسة. يهتمّ بدكّانه الصغير الذي كنّا نأتيه والبنادق على أكتافنا، نشتري الطعام القليل الذي يبيعه وهو يشكر الله. ثمّ حين اختفت البنادق واختفى الزبائن، وجاءه الزبائن الجدد الذين يضربون الأرض بأحذيتهم القبيحة، بدأ يلعن الزمن والملوك ويردّد آيته المفضّلة التي عليك أن تسمعها حتّى ولو اشتريت بألف ليرة. وإلاّ فهو لا يبيع. ينحني الملك، يتقدّم، يعلو التصفيق، تضيق المساحة. تضيق حتّى تصبح علبة صغيرة. تنبت المسلّة، تعلو حتّى تصبح خازوقًا. أركض نحو الملك، أريد أن أسأله سؤالاً محدّدًا. أريد أن أسأله عن صحّة الخبر الذي نشرته الصحف والذي يقول إنّه يعالج من الفطر الذي ينمو على جبينه والجراثيم التي تأكل يده.

ـ ما هي القصّة الحقيقيّة يا جلالة الملك؟

لكنّ جلالته لا يجيب. الهواء بارد والسّاحة فسيحة وجلالته مستعجل. يريد أن ينهي المراسيم بسرعة كي ينصرف إلى عمله. وهي إلى جانبي لكنّها لا ترى. لماذا هذه المرأة لا ترى وجهي والفطر الذي ينمو عليه، ويدي التي تأكلها الجراثيم؟ لماذا لا ترى سوى الحضارات، وكأنّ الحضارات أكياس من

البطاطا التي اختلطت حتّى لم تعد تستطيع تمييز حبّاتها، لكنّها لا ترى والملك لا يجاوب والهواء يصفق بجسده الصغير الذي يطير مثل القماش الأسود، وكأنّه علامة الحداد وسط ساحة تمتلئ باللّون الأبيض. ووسط انحناءات لا تحصى لرجال قدموا من مختلف القارّات.

أمسكت بيدها. كانت تطير في الساحة، وأنا أحبّها. لكنّ جسدي يؤلمني. والأشياء تنمو أو لا تنمو، لكنّ المسألة أكثر تعقيدًا كما أحبّ أن أؤكّد دائمًا، حتّى لا أتورّط في مواقف لا أريدها، أو حتّى أموت مطمئنًّا إلى صورتي المعلّقة على الحائط. إنّه يشبه الأخطبوط. ملك دون ريش، وجهه صغير جدًّا، أطرافه تنمو وتلتفّ حول المسلّة المصريّة كي تمسك برأسي وتسحقه، لكنّني أهرب. أركض وسط الساحة، الساحة محاطة بسور طويل وسميك. لا أستطيع أن أفعل شيئًا. أريد سكّينًا كي أقطع الأطراف السود. أنا في الزاوية ويدي تمسك نصلاً حادًّا. والدماء حول رأسي مثل تاج لا أريد أن أخلعه. أنا هو الملك الحقيقيّ قلت لها. لكنّها لا تفهم. لماذا هذه المرأة لا تفهم؟ ولماذا هذا السّور؟ ولماذا هذا الملك الآخر؟

* * *

بدأ المطر الذي يبلّل رأسي وثيابي يجفّ. وهذا الرّجل العنيد لا يزال يمسك بيدي، ولا يسمح لي بالخروج من هذا الدهليز. فبرجيس نهرا رجل عنيد. لذلك تفوح رائحة الخمر من فمه وتدفعني إلى حافّة اليأس من هذه الحياة. فأنا رغم كلّ شيء مستعدّ أن أقتنع. أستطيع أن أقتنع بأنّ جميع المدن

تتشابه، وبأنّ الساحات تتشابه أيضًا. لكنّني لا أستطيع أن أقتنع بأنّ النساء تتشابه. فالمسألة أكثر تعقيدًا وتحتاج إلى مراجعة شاملة. ونحن حين كنّا نهدم بيروت كنّا نعتقد بأنّنا هدمناها. نركض بين الساحات التي تخرّبت والبنايات التي انهارت أو التي هي على وشك الانهيار، ونقتنع بأنّنا دمّرنا المدينة. أخيرًا دمّرنا المدينة، لكن حين قالوا بأنّ الحرب انتهت ونشروا صور الدمار الهائل الذي حلّ ببيروت، اكتشفنا أنّنا لم ندمّرها. أحدثنا بعض الفجوات في حائطها لكنّها لم تدمّر. وأنّ القضيّة ربّما احتاجت إلى حروب جديدة. لكنّ جميع المدن تتشابه وأنا مقتنع. غير أنّي لم أكن أعرف لماذا يقيمون الساحات وسط المدن. من أجل الهواء قال أبي. حتّى لا تأكل البيوت بعضها وينبت الفطر على وجوه الأطفال. لكنّ جمال باشا له رأي آخر. وربّما كان على حقّ. أذكر أنّه بعد أحداث ١٩٥٨ اعتقلوا رجلاً اسمه التكميل وألبسوه كلّ أنواع الجرائم التي ارتكبت خلال الحرب الأهليّة. ثمّ قالوا له بأن يصطنع الجنون. فنبتت لحيته وأصبح يجلس في السّجن ويروي أنّه الله، ويبعث برسائل إلى رئيس الجمهوريّة مبشّرًا بدينه الجديد ومعلنًا براءته من الجرائم التي نسبت إليه. وكان مقنعًا. ومن الواضح أنّ المحامي الذي أقنعه بأن يصبح مجنونًا هو الذي كان يكتب هذه الرّسائل التبشيريّة الجميلة. لكنّ الأمور لم تسر في الخطّ المرسوم لها. كان لا بدّ من إقناع الحبال، والحبال لا تقتنع بسهولة. لذلك شنقوه. أمام المشنقة لم يعد التكميل مجنونًا. اعترف واستغفر. لست المجرم الوحيد قال. فالمجرم الحقيقيّ لا يزال في بيته أو في الشارع أو في مدينة أخرى. ورغم أنّ

الجلاّد بدا يومها مقتنعًا، إلاّ أنّه لم يكن هناك وقت، فشنقه. وارتاحت ضمائر رجال البوليس، وعادوا إلى مزاولة أعمالهم الجميلة كالمعتاد.

جميع الساحات تتشابه. هناك ساحات بيض، وساحات خضر، وساحات رماديّة. أنا أفضّل الساحات البيضاء قالت.

ـ لكنّها تشبه المستشفيات، ورائحتها مزيج من الأدوية والبلازما.

ـ لا. إنّها ساحات الملوك.

ـ لكنّي أكره الملوك وأفضّل الساحات الرماديّة. في الساحات الرماديّة نجد السجون. وفي السّجون نجد الرّاحة. ربّما كانت السّجون ضروريّة في بعض اللّحظات، هناك أرتاح قليلاً وأنسى همومي. لأنّ السّجن يخلق همومه اليوميّة، وهي هموم مقنعة.

جيمع الساحات تتشابه. حتّى في الساحات الخضر، حيث الماء والعشب والأزهار، نجد حبلاً يتدلّى، أو ملكًا أو خازوقًا يشبه الأشياء الفنيَّة المعقّدة. نقترب منه فنجده مجرّد خازوق عاديّ جدًّا.

كانت الساحة فارغة. الأصوات هي أصوات بعض الباعة الذين استيقظوا باكرًا وحملوا الخضار والفواكه إلى الأحياء من أجل أن يبدأ النهار وتأخذ الأمور شكلها الطبيعيّ. هكذا يبقى كلّ شيء طبيعيًّا رغم كلّ شيء. وحتّى أكون دقيقًا كانت هناك أصوات شاحنات النفايات التي تدور بعمّالها على الأحياء

السكنيّة الراقية، خوفًا من انتشار الأوبئة. الأضواء لا تزال خفيفة وتشبه أضواء الصباح الباكر. وأنا أقف في الساحة وهي تمسك بيدي وأمامي يقف رجل سمين وقصير. رقبته سميكة كأنّه خنزير برّيّ. أصلع قليلاً، يحمل ورقة طويلة عليها كتابات بكلّ الأحرف. يقف في مواجهتي تمامًا. ينظر في عينيّ. وإلى جانب الرّجل هناك حبل طويل يتدلّى وكأنّه سقط من السماء. يتقدّم الرّجل منّي ويبدأ في قراءة الورقة التي يحملها. ولم أكن أفهم شيئًا. نظرت إليها. كان وجهها يتمدّد ويصبح أكثر بياضًا. يبدو أنّها تفهم الكلام الرّهيب الذي يقوله الرّجل.

ـ ماذا يقول؟

ـ ليس مهمًّا الذي يقوله. فالمهمّ أنّه سيتحقّق ما جاء في الكتب.

ـ ولكن، ماذا جاء في الكتب؟

ـ كتبوا أشياء كثيرة في الكتب. وستتحقّق.

ونحن لا نحبّ الكتب ولا نحبّ قراءتها. ولا يهمّنا ما كتب فيها. لأنّنا نعلم بالضّبط ما هو مصير الكتب. وأستاذنا يعلم ذلك أيضًا. التقيته في الشارع، وكانت القذائف تطير في سماء المدينة. لم أعرفه في البداية. كان متهدّلاً ومسحوقًا. وفمه يميل قليلاً إلى اليمين أكثر من اللاّزم. ثمّ فهمت أنّه مرض ممّا أدّى إلى التواء فكّه الأسفل.

ذهبت إلى الجامعة، قال. فوجدت أشياء لا تصدّق، لماذا فعلوا هذا؟ هذا إجرام بحقّ الأجيال الطالعة. نهبوا الكراسي

والطاولات والسجّاد والألواح السود والطبشور. نهبوا كلّ شيء. بسيطة، يمكن تعويض هذه الأمور. لكنّ المكتبة. هل تعلم ماذا فعلوا بها؟ يا ليتهم نهبوها حتّى نقول إنّهم يستفيدون الآن من الكتب. دخلتها فوجدت كلّ شيء في مكانه ممزّق. مليون ليرة من الكتب الثمينة والقديمة مزّقوها وداسوها بأقدامهم ورموها على الأرض وفي الحديقة وعلى النوافذ. أنا معهم ومع قضيّتهم، لكن ما هو ذنب الكتب؟!

طيّبت خاطره ثمّ تركته وانصرفت.

ـ سيتحقّق ما جاء في الكتب!

كان واثقًا من نفسه حدّ الاختناق، وأنا لا أفهم الكلمات التي يتفوّه بها. دنا منّي. كنت أقف وخلفي حائط سميك لا يمكن اختراقه. دنا فمه من وجهي أكثر حتّى أحسست أنّه يكاد يبتلعني. كنت أحاول التراجع فلا أستطيع. ثمّ بدأ بصاقه يتناثر. أخذ يسرع في قراءته وبصاقه يسرع في تناثره على وجهي. صرخت به أن يتوقّف. لكنّه كان يتابع كأنّه آلة عمياء لا تفهم. ثمّ بدأت، وتحت هذا المطر الكريه الرّائحة، أفهم ما يقول. يبدو أنّه يتكلّم عن أشياء خطيرة، وأحكام متفاوتة وإعدامات ومشانق.

لكنّ الرّجل السميك الرّقبة كخنزير برّيّ يتابع وكأنّه لم يسمع شيئًا. أو كأنّه لا يريد أن يسمع. يبدو أنّ الجزء الرئيسيّ من مهنته هو عدم سماع أقوال المتّهمين. ففي بعض الأحيان يكون أحد هؤلاء مقنعًا وهذا يشكّل خطرًا على وظيفة الرّجل السميك الرّقبة. فهو ربّ عائلة كبيرة ويريد أن يعيش ولا يعرف مهنة

أخرى تدرّ ربحًا يوازي هذه المهنة. رغم أنّ جميع الجيران يعتقدون أنّها مهنة قذرة، لكنّه مقتنع بأنّ جميع المهن قذرة، وجميع المهن تتشابه، والأفضل أن نشرب من رأس النبع. لذلك يتابع مهنته. لا يتوقّف لحظة. يقرأ الورقة محاولاً البقاء عند مخارج الأصوات. فهو لا يهمّه مضمون الورقة. الذي يهمّه هو العمل. فبعد لحظات يجب شنق هذا الرّجل. وعمليّة الشنق لا تأخذ وقتًا طويلاً. بضع دقائق لسماع خطاب من المشنوق. ثمّ بضع دقائق أخرى كي ينفّذ طلبه الأخير. وهم يطلبون غالبًا تدخين سيجارة ويتباطأون في تدخينها. لكن مهما تباطأ فالسيجارة، وخاصّة إذا كانت أميركيّة، تنتهي بسرعة. ثمّ يبدأ العمل الحقيقيّ الذي لا يستغرق طويلاً إذا أحسن تحضير الحبل. حيث يختتم مهمّته بالإمساك بقدمي الرّجل وشدّهما إلى أسفل حتّى لا يتعذّب كثيرًا. إنّما أكثر الأشياء التي يكرهها في هذه المهنة هي قراءة الورقة الطويلة. في الماضي كانوا يجلبون أحد القضاة لقراءة الحكم. أمّا الآن فعليه هو أن يقرأ. وهو يعلم أنّ هذا ليس قانونيًّا وأنّ الحكم لم تصدره هيئة قانونيّة. لكنّه لا يكترث، فالهيئات القانونيّة تشبه الهيئات غير القانونيّة. وكلّ شيء يقود إلى نتيجة واحدة هي استمراره في العمل.

تقدّم الرّجل. كان يلبس الثوب الأبيض الكلاسيكيّ، وكانت الساحة خضراء والسماء رماديّة. لم يطلب شيئًا. حتّى أنّه لم يطلب مسح المطر الكريه الرّائحة عن وجهه.

ـ سيجارة؟

لم يجاوب. رفع رأسه إلى أعلى.

ـ هل تريد شيئًا؟

لم يجاوب. رفع رأسه إلى أعلى.

ـ ما هي وصيّتك؟

لم يجاوب. ومرّة ثالثة رفع رأسه إلى أعلى.

ما هذا الصنف الجديد من الرّجال. فكّر الرّجل السميك الرّقبة. لكنّهم في النهاية يتساوون أمام الحبل. يرتجفون ويبدأون بتلاوة الآيات والتعاويذ ويستغفرون ويبكون. تقدّم الرّجل بثوبه الأبيض. لم يكن يرتجف. ربّما ارتجفت رجله اليمنى قليلاً. لكن ليس هذا مهمًّا. تقدّم وكان على وجهه آثار حروق والماء ينزف من أذنيه. لم يقل شيئًا، صعد الدرج وتدلّى على الحبل. كان جسده ينحني. يرتجف قليلاً. لكنّه كان يصعد بأقدام ثابتة. لم يعد يستطيع التقدّم. أمسك به. كانت الأضواء تلوّن السّماء. كان الجسد عجينًا يتلوّن كلّ لحظة. لم يسقط. أخذته. ارتجف جسده قليلاً كأنّه في حمّى. ثمّ سقط. وكانت المسافة طويلة جدًّا.

هذه هي المسألة. المسافة الطويلة والساحة الطويلة والحبل الطويل. لكنّ الملك كان قصيرًا ويرتجف. المسلّة كانت طويلة.

سيتحقّق ما جاء في الكتب، قالت.

لكنّ الكتب بعيدة، والمسافة طويلة جدًّا. الحبال أهمّ من الكتب، أجبتها.

كنّا نسير، يدها في يدي، والحزن الذي يصفع وجه المدينة يصفع وجهينا، وكان الرّجل الذي شنقوه حزينًا. في المرّة المقبلة يجب أن لا نكتفي بسرقة الحبل بل يجب تمزيقه، في المرّة المقبلة يجب أن لا نكتفي باحتلال الساحات والأبنية بل يجب تدميرها. الأساسيّ أنّه يجب أن تكون هناك مرّة مقبلة.

ـ ألم أقل لك؟ جميع الساحات تتشابه. وجميع المدن التي تخترقها الأنفاق ستدمّر. يبدو برجيس الآن شاحبًا. ثمّ بدأ ينزلق داخل ثيابه، حتّى أصبح مجرّد ثياب تتحرّك. العرق يتصبّب من ثيابه. بدأ يفكّر بالفرقة الأجنبيّة. الفرقة الأجنبيّة مجرّد حلّ مؤقّت. لكنّه أفضل من لا شيء. الثياب تتحرّك وإشارات اليد لم تعد تعني أشياء كثيرة. الفرقة الأجنبيّة هي الحلّ الوحيد. إنّها أفضل من لا شيء. وقد تصبح كلّ شيء.

تركته، وبدأت أركض في اتّجاه المترو. لم ألتفت إلى الوراء. كنت أركض مسرعًا. فربّما لا تزال تنتظرني.

مكتبة ياسمين

t.me/yasmeenbook

صدر للمؤلّف

روايات

عن علاقات الدائرة، ١٩٧٥، ١٩٨٥.

الجبل الصغير، ١٩٧٧، ١٩٨٤، ٢٠٠٣.

أبواب المدينة، ١٩٨١، ١٩٩٠.

الوجوه البيضاء، ١٩٨١، ١٩٨٦، ٢٠٠٣.

المبتدأ والخبر (قصص)، ١٩٨٤.

رحلة غاندي الصغير، ١٩٨٩، ٢٠٠٠.

مملكة الغرباء، ١٩٩٣.

مجمع الأسرار، ١٩٩٤.

باب الشمس، طبعة أولى ١٩٩٨، طبعة ثانية ١٩٩٨.

رائحة الصابون، ٢٠٠٠.

يالو، ٢٠٠٢.

دراسات

تجربة البحث عن أفق، ١٩٧٤.

دراسات في نقد الشعر، ١٩٧٩، ١٩٨١، ١٩٨٦.

الذاكرة المفقودة، ١٩٨٢، ١٩٩٠.

زمن الاحتلال، ١٩٨٥.